الإسلام

(كما تفهمه الصحوة وتيارها الوسطى)

الصحوة ، وكيف تفهم الإسلام ؟

لا بد لنا لكى نتبين موقف الصحوة من هموم الوطن العربى ، وكيف ننظر إليها ، أو نفكر فى علاجها ، أو نكشف قبل ذلك عن مدى فهمها للإسلام ، ونوع نظرتها إليه ، وكيف تتعامل مع أصوله وفروعه ، وثوابته ومتغيراته ، وأى اتجاه تتبناه ، وأى اتجاه تحذر منه ، حتى يكون حكمنا للصحوة أو عليها عن بينة .

* *

● تيار الوسطية الإسلامية :

على أن أحداً لا يجهل أن الصحوة تمثل فصائل وتيارات متعددة تتفق كلها على حبها للإسلام ، واعتزازها برسالته ،، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه ، والعمل به ، والدعوة إلى تحكيم شريعته ، وتحرير أوطانه ، وتوحيد أمته ، والوقوف فى وجه الكائدين له ، ولكنها تختلف فى قضايا ومواقف كثيرة ، بعضها يمثل تفصيلات ، وبعضها يمثل اتجاهات مهمة . ولكنى هنا أتحدث باسم أهم تيارات الصحوة وأعظمها ، وهو التيار الذى أسميه (تيار الوسطية الإسلامية) وذلك لعدة أسباب :

أولاً : لأنه التيار الذى يمثل أعرض قاعدة فى الصحوة الإسلامية ، وما عداه يعتبر بمثابة قنوات صغيرة ، ربما تفرعت من هذا المجرى الكبير ، إلا أنها انفصلت عنه بعد ذلك .

وثانياً : لأنه التيار الأعرق والأقدم فى تاريخ الصحوة أو التجديد الإسلامى ، والتيارات أو الفصائل الأخرى مثل التكفير ، والهجرة ونحوها ، حديثة العهد ، لا تضرب فى التاريخ إلى غور بعيد .

وثالثاً : لأنه التيار الذى يرجى طول عمره واستمراره ، فإن الغلو دائماً قصير العمر ، ولا ينتظر له البقاء طويلاً ، وفقاً لسنة الله ، فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

ورابعاً : لأنه – فى رأيى على الأقل – هو التيار الصحيح ، الذى يعبر عن وسطية المنهج الإسلامى الذى سماه القرآن (الصراط المستقيم) ووسطية الأمة الإسلامية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) . ويجسد يُسر الإسلام وسماحته ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣) .« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (رواه الترمذى) .

كما يمثل وسطية أهل السنة بين الفرق الإسلامية المختلفة ، ممن يبالغون فى تضخيم دور العقل على حساب النص ، أو دور النص على حساب العقل.

* *

● خصائص تيار الوسطية :

وحتى نضع النقط على الحروف ، أذكر هنا الخصائص أو المعالم البارزة التى تميز هذا التيار ، فى فهمه للإسلام وعرضه له .

* *

● وأهم هذه المعالم أو الخصائص ، يتمثل فى أمور أربعة :

١ – الجمع بين السلفية والتجديد .

٢ – الموازنة بين الثوابت والمتغيرات .

٣ – التحذير من التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام .

٤ – الفهم الشمولى للإسلام .

ويحسن بنا أن نتحدث عن كل عنصر منها بما يلقى بعض الأشعة الكاشفة عليها .

* *

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .
(٣) سورة الحج : الآية ٧٨ .

١ - الجمع بين السلفية والتجديد

وأول خصائص تيار الوسطية أنه يجمع بين السلفية والتجديد ، أو بين الأصالة والمعاصرة ، كما يقال اليوم .

فالسلفية تعنى العودة إلى الأصول ، إلى الجذور ، إلى المنابع ولهذا يطلق على دعاة هذا التيار (الأصوليون) .

والجديد يعنى : المعايشة للعصر ، والمواكبة للتطور ، والتحرر من آثار الجمود والتقليد .

ولا بد من إلقاء شيء من الضوء على هذين المفهومين : السلفية والتجديد .

فكثيراً ما تفهم (السلفية) خطأ ، حيث يحسب من يحسب أنها العودة إلى الماضى بإطلاق ، ولو كان ماضى عصـور التخلف والانحراف والجمود .

ولكن المصطلح الإسلامى لا يجعل (السلف) مطلق الماضيين . بل السلف هم أهل القرون الأولى ، خير قرون هذه الأمة ، وأقربها إلى تمثيل الإسلام فهماً وإيماناً وسلوكاً والتزاماً . ومن عدا هؤلاء يسمون (الخلف) .

والمدارس والحركات الإصلاحية والتجديدية التى قامت فى العصور الماضية كان أساس دعوتها وفكرها (السلفية) أى الرجوع إلى ما كان عليه السلف الأول فى فهم الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً .

وكثيراً ما حذر العلماء من ابتداعات الخلف فى الاعتقاد والتعبد والعمل: وخصوصاً فى العصور الأخيرة التى تمثل انتكاسة الحضارة الإسلامية ، وتوقف الفكر الإسلامى عن الإبداع ، وانحراف السلوك الإسلامى عن خط التوازن والاعتدال ، الذى سماه القرآن (الصراط المستقيم) . ومما حفظناه ونحن فى ثانوى الأزهر قول صاحب الجوهرة :

فكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

وليس معنى العودة إلى ما كان عليه السلف أن نكون نسخاً (كربونية)

لهم . بل المهم أن نتمثل منهجهم وروحهم فى فهمهم وسلوكهم ، وتعاملهم مع الدين والحياة .

فنعود إلى فهمهم للعقيدة فى سهولتها ووضوحها ونقائها ، بعيداً عن جدل المتكلمين ، وتعقيدات المتفلسفين ، وأباطيل القبوريين .

وإلى فهمهم للعبادة فى روحانيتها وصفائها وخلوصها ، بعيداً عن شكلية الطقوسيين ، وابتداع المبتدعين ، ما لم يأذن به الله .

وإلى فهمهم للأخلاق فى تكاملها وقوتها ، بعيداً عن شوائب التصوف الأعجمى ، والزهد الهندى ، والترهب النصرانى .

وإلى فهمهم للشـريعة فى مرونتها وسعة آفاقها ، بعيداً عن جمود الحرفيين ، وتقليد المتعصبين ، وتشددات المتخوفين .

وإلى فهمهم للحياة وثبات سننها ، وقيامها على العلم والعمل ، بعيداً عن أخيلة الحالمين ، وأفكار السطحيين .

وإلى فهمهم للإنسان باعتباره خليفة الله فى الأرض ، المكرم بالعقل ، والمخاطب بالتكليف ، وصانع الحضارة ، والمسؤول عن عمارة الأرض ، مسؤوليته عن عبادة الخالق .

ومن الخطأ الذى يجب تصحيحه هنا : اعتبار الرسول الكريم المؤيد بوحى الله من جملة (السلف) واعتبار القرآن والسنة من جملة (التراث) واعتبار الإسلام كله من جملة (الماضى) !!..

وهذا خلط شائن بين المفاهيم ، أو تحريف للكلم عن مواضعه عمداً .

إن الإسلام ليس ماضياً انقضى وانتهى زمنه ، نحاول أن نستعيده . إن الإسلام هو الماضى ، وهو الحاضر ، وهو المستقبل .

والقـرآن هو كلمات الله الهادية الباقية على طـول الزمان ، وامتداد المكان .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هى خطاب الله تعالى للمكلفين فى كل عصر ومصر ، سواء كانوا فى القرن السابع الميلادى ، أو فى القرن العشرين أو الخمسين .

إن فقه أبى حنيفة ، وأصـــول الشافعى ، وكلام الأشعرى ، وأدب الجاحظ ، وشعر أبى العلاء ، وآراء ابن حزم ، وتصوف الغزالى ، وفلســـفة ابن رشد ، واجتهادات ابن تيمية ، وغيرهم وغيرهم من عمالقة الفكر الإسلامى فى مختلف العصور ، كلها تراث بشرى نأخذ منه وندع ، وفق القواعد والمعايير العلمية التى وضعها الإسلام فى أيدينا .

أما كتاب الله وسنة رسوله فهما أبداً مصدر الإلهام ، ومصدر الإلزام ، لكل من آمن بالإسلام ، أمس واليوم وغداً .

وربما يستبعد كثير من الناس أن يرحب الدين بالتجديد ، فالدين عندهم يمثل القديم الذى لا يتجدد ولا يتطور .

وأؤكد هنا بكل صراحة أن نبى الإسلام نفسه هو الذى علمنا أن الدين يتجدد وأن الله يهيىء له مجددين بين حين وآخر ، وذلك فى الحديث الذى رواه أبو داود ، فى سننه ، والحاكم فى مستدركه ، وغيرهما ، أنه ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وإذا صرح الرسول الكريم بتجديد الدين ، فلا يحق لزيد أو عمرو من الناس اليوم أن يقول : إن الدين لا يقبل التجديد ، فليس هو أعرف بالدين ممن بعثه الله به ، لكن المهم هو تحديد مفهوم التجديد ومجاله وحدوده . فليس معنى التجديد إخراج طبعة جديدة من الإسلام (مزيدة ومنقحة !) . بل المقصود تجديد الفقه له ، والإيمان به ، والعمل بمقتضاه ، والدعوة إليه . فهو تجديد فكرى وإيمانى وعملى وجهادى [1] .

وقد يحسب بعض الناس أن هناك تعارضاً حتمياً بين السلفية والتجديد فالسلفية رجوع إلى الماضى ، والتجديد انطلاق إلى المستقبل .

ورأيى عكس ذلك تماماً ، أى أن هناك تلازماً بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقى ، فالسلفية الحقيقية لا تكون إلا مجددة ، والتجديد الحقيقى لا يكون إلا سلفياً . فروح السلفية هو التجديد . وقد تجلى هذا المعنى بوضوح فى المدرسة السلفية التجديدية الكبرى التى أسسها شيخ

---

(١) انظر : بحثنا عن (تجديـــد الدين فى ضوء الســـنة) فى العدد الثانى من (مجلة مركز بحوث السنة والسيرة) بجامعة قطر وكتابنا : (من أجل صحوة راشدة) .

الإسلام ابن تيمية وتلامذته ، وكان لها أثرها العميق فى العقائد والفقه والفكر والأخلاق والسلوك إلى اليوم .

ومثل هذه الروح نجدها عند العلامة ابن الوزير (ت سنة ٨٤٠ هـ) فى اليمن الذى خلف ثروة فكرية قيمة تجمع بين السلفية والتجديد ، وتحاكم اتجاهات الفرق والمذاهب إلى أصول الإسلام ونصوصه ، وترجح منهج القرآن فى بيان العقائد ، وتثبيتها على منهج اليونان .

وقد وجدنا هذا الاتجاه السلفى المجدد فى المدرسة اليمنية من بعد ، المتمثلة فى العلامة الأمير الصنعانى (ت ١١٩٧) صاحب (سبل السلام) وغيره من الكتب ، والمحقق الشوكانى (ت ١٢٥٥) صاحب الكتب الشهيرة فى الفقه والأصول والحديث والتفسير وغيرها : مثل (نيل الأوطار) و(السيل الجرار) ، (إرشاد الفحول) ونحوها .

ووجدنا هذه الروح فى مجدد الهند الشهير ، وإمام نهضة الحديث فيها ، ومحرر العقل الهنـدى من المذهبية الصارمة ، حكيم الإسـلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم (شاه ولى الله) الدهلوى صاحب كتاب (حجة الله البالغة) وغيره (ت ١١٧٦) .

كما تجلى هذا فى المدرسة السلفية الحديثة ، التى مثلها محمد عبده ، ورشيد رضا ، الذى اعتبر بحق زعيم المدرسة السلفية الحديثة ، والحق أنه يمثل السلفية أكثر من شيخه .

وربما يعترض معترض بالحركة (الوهابية) فهى حركة سلفية ، تستمد من تراث المدرسة (التيمية) ولكنها لم تعرف بالتجديد والاجتهاد . لهذا سماها د . محمد عمارة (السلفية النصوصية) يقصد بالنصوصية : الحرفية فى فهم النصوص ، ولعلها هى التى أثرت فى كثير ممن ينتمون إلى (السلفية) فى عصرنا من المعادين للتجديد .

ولكن الذى يتأمل بإنصاف نشأة هذه الحركة يجد أنها نشأت فى مجتمع بسيط بعيد عن معترك الحضارة تغلب عليه حياة البداوة ، ولم يكن فى حاجة إلى تجديد أو اجتهاد ، بقدر ما كان فى حاجة إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وتطهير الدين مما علق به من أباطيل . لهذا كان هم الحركة الأكبر أن

ترد الناس عن عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ، وأن تطهر عباداتهم من البدع، وأفكارهم من الخرافات .

على أن ابن عبد الوهاب كان له فضل الدعوة للرجوع إلى الكتاب والسنة من الناحية النظرية ، كما له – من الناحية العملية – فضل آخر ، يتمثل فى التحرر من المذهب الواحد ، إلى باحة المذاهب الأربعة ، وإن وقف عند هذا الحد ، لا يتجاوزه ، ولا يصنع كما صنع شيخه وإمامه ابن تيمية ، الذى كان مجتهداً مطلقاً ، كما دل على ذلك تراثه العريض .

المهم أن السلفية الحقة تلازم التجديد ، وأن عصور السلف هى عصور التجديد والانفتاح .

وكلما رجعنا إلى العهود الأولى : عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم وجدنا المرونة واليسر والتسامح ، وسعة الأفق فى فهم نصوص الدين ومصالح الدنيا ، وفى التوفيق بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية .

وفى هذا نجد فتاوى عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من علماء الصحابة رضى الله عنهم ، ومن أخذ عنهم ، وتأثر بهم .

ومن هنا اتسعت الشريعة لعلاج كل جديد فى بلاد الحضارات العريقة التى دخلها الإسلام فى العراق وفارس والشام ومصر ، وغيرها .

وقد وجدت بالاستقراء أن الصحابة هم أفقه الناس لروح الإسلام وأكثرهم تيسيراً على الأمة ، وأقدرهم على ربط الدين بالحياة ، وأشجعهم فى مراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال ، وتلاميذهم من التابعين أشبه بهم ، وأقرب إليهم .

وكلما تدرجنا – تنازلياً – من عصر إلى عصر ، بعدنا عن المرونة والتيسير والتجديد ، ودخلنا فى دائرة (الأحوط) بدل دائرة (الأيسر) حتى إذا انتهينا إلى العصور المتأخرة وجدنا الجمود والتشديد والتقليد ، والوقوف عند أقوال المتقدمين ، الذين نهوهم عن تقليدهم ، واتخاذ أقوالهم واجتهاداتهم شرعاً يتبع ، وديناً يطاع .

أما التجديد فهو لا ينافى السلفية ، فالتجديد الحقيقى لأمر ما يعنى العودة به إلى ما كان عليه يوم إنشائه وظهوره لأول مرة .

تجديد بناء أثرى لا يعنى إزالته وإقامة مبنى ضخم على أحدث طراز مقامه ، فهذا ليس من التجديد فى شىء .

إنما تجديده أن نبقى عليه كما كان ونحاول أن نعيد إليه الجدة والحياة ، ونرمم ما أصابه من بلى أو تهدم لبعض جوانبه ، دون أن نغير من جوهره أو من معالمه أو من خصائصه شيئاً . وإلا اعتبر عملنا تزييفاً لا تجديداً .

وكذلك (تجديد الدين) أن نحافظ على جوهره ومعالمه وخصائصه ، ومقوماته ، ونعود به إلى ما كان عليه ، يوم ظهوره وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين المهديين .

التجديد الحق يعنى العودة إلى (الإسلام الأول) قبل أن تشوبه بدع المبتدعين ، وتضييقات المتشددين ، وتحريفات المغالين ، وانتحالات المبطلين ، وتأويلات الجاهلين ، وعدوى التشويه التى أصابت الملل والنحل من قبل .

و (الإسلام الأول) هو إسلام النقاء والبساطة فى العقيدة ، وإسلام الإخلاص واليسر فى العبادة ، وإسلام الطهارة والاستقامة فى الأخلاق ، وإسلام الاجتهاد والتجديد فى الفكر ، وإسلام العمل والإنتاج للحياة ، وإسلام التوازن بين الدنيا والآخرة ، والاعتدال بين العقل والقلب .

ومن نعم الله علينا – نحن المسلمين – أن عندنا من المعايير الثابتة ما نستطيع أن نميز به بين الأصيل والدخيل ، وبين الحقيقى والزائف ، وقد أعطانا النبى هذا المعيار حين قال :

« من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » متفق عليه ، و « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم .

وقد أخطأ بعض الكاتبين خطأ شائناً وفاضحاً حين توهم أن رفض الابتداع رفض للابتكار والتجديد . وهو جهل بحقيقة الابتداع المحظور . إنه الابتداع فى أمور الدين المحض ، فالأصل فى شؤون الدين الاتباع ، وفى شؤون الدنيا الابتكار والابتداع . فليس من حق البشر أن يزيدوا فى الدين بأهوائهم ، ويشرعوا منه ما لم يأذن به الله ، فَيضلوا ويُضلوا .

ويوم كان المسلمون مسلمين حقاً التزموا واتبعوا فى أمور الدين ، وابتدعوا وابتكروا فى أمور الدنيا ، وكانوا أئمة الحضارة فى العالم .

ويوم انحرفوا عن حقيقة الإسلام ابتدعوا فى أمر الدين ، وجمدوا فى أمر الدنيا ! على عكس ما أمرهم به الإسلام ، وما كان عليه الإسلام .

إن تيار الوسطية الإسلامية – وهو المعبر الحقيقى عن الصحوة الإسلامية– لا يجد أى تناقض بين الأصالة والمعاصرة ، أو بين السلفية والتجديد ، أو بين النظرة التراثية والنظرة المستقبلية . إذا حددت المفاهيم بعيداً عن الخلط والتحريف .

وإن كان الذى يؤسف له أن كثيراً من دعاة المعاصرة والتجديد والنظرة إلى المستقبل ، يرفضون تراثنا ، وينكرون ماضينا ، ويكادون لا يجدون فيه إلا كل سيء وكل رديء .

بعض هؤلاء مولعون – كما يقول الأستاذ فهمى هويدى – بالبحث فى القمامة ، فهم يبحثون فى أحط عصور التخلف الإسلامية ، عن أحط وقائع الانحراف فيها من بين آلاف الوقائع الأخرى ، ثم يقولون : هذا هو (العصر الذهبى) الذى يريدوننا أن نعود إليه !! .

أى والله ، هذا ما كتبه أحدهم بكل جراءة .

ولا أدرى من – من دعاة تحكيم الشريعة يعتبر العصر المملوكى أو العثمانى هو العصر الذهبى لتطبيق شريعة الإسلام ؟ .

ومن من دعاة الشريعة يقر هذه الانحرافات ، ويعتبرها تراثاً ملهماً يعتز به وينادى بالرجعة إليه ؟ .

على أن الكاتب لم يكن منصفاً للعصر الذى كتب عنه . فكم فيه من أمثلة رائعة لتحرى العدل ، والوقوف بجانب الحق ، وإنشاء معاهد العلم ، ومؤسسات البر والخير .

وهو العصر الذى ظهر فيه ابن تيمية وابن القيم وابن خلدون والشاطبى وغيرهم ، وهو عصر الموسوعات اللغوية والأدبية والدينية ، التى لا يستغنى عنها باحث ولا ينكر قيمتها دارس اليوم .

* *

● النظرة المستقبلية :

على أن من الإنصاف أن نقول : إنه إذا كان الدعاة إلى العلمانية أو إلى « التقدمية » يكادون يلغون النظرة إلى الماضى ، فإن من الدعاة الإسلاميين فئة يكادون يلغون النظرة إلى المستقبل ، ويعيشون متقوقعين على الماضى ، واجترار ما فيه ، والدوران فى ساقيته ، دون اهتمام كاف بمشكلات اليوم ،

وتطلعات الغد ، شعارهم : ما ترك الأول للآخر شيئًا ! وليس فى الإمكان أبـدع مما كان ! .

والواجب يفرض علينا أن نكون عدولاً بين أمسنا ويومنا وغدنا . فتقتبس من الأمس ، ونعمل لليوم ، ونستعد للغد ، وهو ما يؤمن به تيار الوسطية الإسلامية .

وقد قص علينا القرآن الكريم من أنباء الرسل والصالحين ما فيه عبرة لأولى الألباب ، فى مواجهة احتمالات المستقبل ، وتقلبات الأيام .

* *

● تخطيط يوسف الصديق لمواجهة المجاعة :

قص علينا القرآن قصة نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف أنقذ الله على يديه مصر وما حولها من أزمة غذائية طاحنة ، ألهم الله يوسف فخطط لها أحسن التخطيط لمدة خمسة عشر عاماً ، أقام فيها اقتصاد مصر – وكانت الزراعة أساسه ومحوره – على زيادة الإنتاج ، وتقليل الاستهلاك ، وتنظيم الادخار ، وإعادة الاستثمار ، حتى نجت مصر من المجاعة ، وخرجت من الأزمة معافاة ، بل كان لها فضل على ما حولها من البلدان ، التى لجأ إليها أهلها يلتمسون عندها الميرة والمؤنة ، كما يبدو ذلك فى قصة إخوة يوسف الذين ترددوا على مصر مرة بعد مرة ، وقالوا له فى المرة الأخيرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (١) .

كان هذا التخطيط مما علمه الله ليوسف عليه السلام ومما أكرم الله به أهل مصر . وكان يوسف هو الذى رسم معالم التخطيط ، وهو الذى قام بالتنفيذ ، وهو لدى الدولة مكين أمين ، وعلى خزانتها وأمورها حفيظ عليم .

* *

● سد ذى القرنين :

وقصة أخـرى قصها الله علينا هى قصة ذى القرنين الذى بنى سده العظيم ، ليقف حاجزاً منيعاً ضد هجمات قبائل يأجوج ومأجوج لأولئك الأقوام الذين كانوا لا يستطيعون لهم دفعاً إذا هاجموهم مفسدين فى الأرض ، مهلكين للحرث والنسل .

---

(١) يوسف : الآية ٨٨ .

﴿ قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (١) .

فكان مشروع ذى القرنين هذا من المشروعات الأمنية المستقبلية التى أقامها ذلك الحاكم الصالح لمواجهة احتمالات الغد ، وصد هجمات أولئك المفسدين الذى أرعبوا من حولهم بغاراتهم المدمرة . وإنما استطاع ذلك – بعد إيمانه بالله – بفضل تعاون الشعب معه بالحب لا بالقهر والعمل بالمواد والإمكانات المتاحة حتى قام السد الكبير .

* *

● الرسول يخطط للمستقبل :

والرسول ﷺ حين كان يعرض دعوته على قبائل العرب فى مواسم الحجيج بمكة ، يطلب منهم الإيمان به ، والنصرة له ، كان يفكر فى مستقبل دعوته ، والبحث عن أرض خصبة يبذر فيها بذوره ، وينقل إليها نشاطه ، ويقيم فيها حكم الله .

ولما شرح الله صدر الأوس والخزرج من أهل يثرب لقبول الدعوة والإيمان بها والمبايعة على نصرته عليه الصلاة والسلام بيعة العقبة المعروفة ، وبعث إليهم « مصعب بن عمير » ، وأمر أصحابه بمكة بعد ذلك بالهجرة إلى إخوانهم هناك ، كان ذلك كله تخطيطاً لنقل مركز الدعوة إلى المهجر الجديد ، حيث تقام دولة الإسلام ، ويرتفع علم الإسلام .

وكذلك حين قال – ﷺ – بعد الهجرة : أحصلوا لى عدد من يلفظ بالإسلام ، فأحصوا له ، فكانوا ألفا وخمسمائة ... كما روى ذلك البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، كان يريد أن يعرف مقدار ما لديه من قوة ، حتى يبنى خطته على أساس سليم من الإحصاء والمعلومات الدقيقة .

---

(١) الكهف : الآيات ٩٤ – ٩٨ .

وحين صالح قريشاً فى « الحديبية » وهادنهم لمدة عشر سنوات ، كان يريد أن يتفرغ لنشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة إلى الملوك والأمراء فى العالم من حوله . وهكذا فعل ﷺ .

* *

● الخلفاء الراشدون يخططون للمستقبل :

وهكذا نجد من بعده – ﷺ – الصحابة والخلفاء الراشدين يحسبون حساب المستقبل ، ويقابلون احتمالاته وتوقعاته بما ينبغى من إعداد وحذر ، وكيف لا وقد قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

وهذا ما دعاهم فى عهد أبى بكر إلى كتابه القرآن الكريم فى مصحف بعد أن كان متفرقاً فى صحف ومواد متعددة ، حينما استحر القتل بالقراء فى معركة اليمامة وغيرها من معارك حروب الردة فخشوا أن يتفاقم ذلك فى المستقبل فكانت كتابه المصحف .

ومن ذلك موقف عمر من قسمة أرض العراق بعد فتحها ومطالبة بعض الصحابة الفاتحين أن تقسم عليهم ، باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها ... ورفض ذلك عمر ومعه كبار الصحابة من أمثال على رمعاذ رضى الله عنهم .

وكان عمر ومن معه ينظرون إلى المستقبل ، مستقبل الأجيال الإسلامية القادمة إذا استحوذ الجيل الحاضر على مصادر الثروة ، فماذا يبقى لهم بعدها ؟! .

ولهذا قال عمر للصحابة الذين أرادوا قسمة أرض سواد العراق عليهم باعتباره غنيمة لهم أربعة أخماسها ، كالمنقولات : أتريدون أن يأتى آخر الناس ولبس لهم شىء ؟! .

* *

---

(١) النساء : الآية ٧١ .

● ضرورة النظرة المستقبلية فى عصرنا :

وإذا كان الاستعداد للغد ، والتخطيط للمستقبل ، واجباً فى كل حين ، فهو أوجب ما يكون فى عصرنا ، الذى يشهد من التغيرات الكبيرة والعميقة والسريعة ، ما لم تعرفه البشرية ولا عشر معشاره فى تاريخها الطويل .

فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى « رؤية مستقبلية » بجوار « الرؤية التراثية » التى جعلت فريقاً منا سجناء الماضى .

والمستقبل فى جانب منه غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولا ينبغى لنا أن نقحم أنفسنا فيه ، وندعى ما ليس لنا به علم ولا لنا إليه سبيل .

وفى جانب آخر ، شىء يدخل فى مجموعه تحت الرصد والحساب ، أشبه بعلم الأرصاد الجوية ، والتنبؤ بما يتوقع أن تكون عليه حالة الجو فى أمد معين بناء على قواعد مدروسة ، وظواهر معلومة .

ومثل هذا يقال بالنسبة للتنبؤ بما يمكن أن تتطور إليه صناعة الحاسبات الإلكترونية (الكومبيوتر) وصناعة « الإنسان الآلى » وطموح العلماء إلى اختراع « آلة متفوقة الذكاء » تفوق ذكاء الإنسان أضعاف المرات . وماذا يتوقع من نتائج هائلة للثورة الإلكترونية ، وثورة المعلومات ؟! .

كما يقال ذلك بالنسبة لما برز فى السنين الأخيرة من بحوث قائمة على قدم وساق فى مجال « الهندسة البيولوجية » أعنى : هندسة « المكونات الوراثية » وما توصل إليه الباحثون من إمكان تغيير الخصائص والمكونات الوراثية للبكتيريا . وما يمكن أن يتمخض عنه ذلك من نتائج مذهلة تعتبر ثورة جديدة فى ميادين الطب وصناعة الأدوية والزراعة وتكوين سلالات جديدة من الأحياء والنبات . وأعجب من ذلك أن تدخل عالم الإنسان ! .

كل هذه التوقعات المستقبلية لا ينبغى للإنسان المسلم أن يغض الطرف عنها بدعوى أنها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى .

فهذا من الغيب النسبى الذى وهب الله الإنسان القدرة على اكتشافه فى دائرة السنن والأسباب التى أقام الله عليها نظام هذا الكون ، وهو داخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) . وهى أول ما نزل من القــرآن .

وأعتقد أن ديننا – والواقعية من خصائصه العامة – يوجب علينا أن نحسب حساب هذه التغيرات الخطيرة ، وندرس احتمالاتها وتأثيراتها علينا ، ومواقفنا منها وما ينبغى أن نعد لها من المال والرجال ، وما ينبغى أن تهيىء له الجامعات ومراكز البحوث ، ونظام التعليم كله ، من تطوير فى الأفكار والنظم والأســاليب ، حتى تخرج الإنسان المؤمن ، القادر على أن يعيش عصره ، من غير أن يفقد نفسه ، وينسى أمسه . وقد جاء فى الأثر : « رحم الله امرءاً عرف زمانه ، واستقامت طريقته » وفى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيــحه : « ينبغى للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه .. » .

* * *

(١) سورة العلق : الآية ٥ .

٢ – الموازنة بين الثوابت والمتغيرات

ومن خصائص تيار الوسطية الإسلامية : الموازنة العادلة بين الثوابت والمتغيرات فى الإسلام ، وتحديد ذلك بوضوح ، حتى لا تختلط الأوراق ، وتذوب الحواجز ، وحتى لا نجور على أحد الطرفين لحساب الطرف الآخر ، وحتى لا نجمد ما من شـــأنه الحركة والمرونة ، ولا نغير ما من شأنه الثبات والدوام .

ومن ثم كان لزاماً علينا أن نحدد ما الثوابت ، وما المتغيرات فى رسالة الإسلام ؟ .

* *

● الثوابت الخالدة : فى العقائد :

١ – أما الثوابت فتتمثل أولاً : فى (العقائد) التى تمثل فكرة الإسلام الكلية عن الألوهية والعبودية ، وبعبارة أخرى : عن الله وعن الإنسان وعن الكون بشقيه : المنظور وغير المنظور . وإذا استعملنا التعبير القرآنى والنبوى قلنا : عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وموقف الإسلام هنا موقف المخبر عن حقيقة هذه الأشياء الموجب للإيمان بها كما هى ، بلا تهوين ولا تهويل .

وهذه الأشياء ليست إلا حقائق ثابتة ، غير قابلة للتطور أو التغيير . فالله – جل جلاله – هو الله منذ الأزل : أحد صمد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

والملائكة جزء من « عالم الغيب » وهم من خلق الله وجنوده التى لا يعلمها إلا هو . وهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٣) .

فهم يمثلون (قوى الخير) من عالـــم الغيب ، كما أن الشياطين تمثـــل (قوى الشر) .

---

(١) سورة الإخلاص : الآيتان ٣ ، ٤ . (٢) سورة الأنبياء : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٦ .

وكتب الله هى النصوص الإلهية المخبرة الآمرة الناهية ، المرشدة إلى ما يطلبه الله من عباده من الإيمان والعمل ، وآخرها والمهيمن عليها هو القرآن الكريم .

ورسل الله هم سفراؤه تعالى إلى خلقه ، بعثهم مبشرين ومنذرين ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » أرسلهم بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وختمهم بمحمد ﷺ ، فليس بعده نبوة ولا رسالة .

واليوم الآخر هو اليوم الموعود ، الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، ويقفون بين يديه للحساب والجزاء . فتوفى كل نفس ما كسبت ، وتجزى بما عملت ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

وكل هذه أخبار عن حقائق ثابتة ، لا تتطور ولا تتغير ، سواء كان الناس فى العصر الحجرى أم فى العصر النووى ، وسواء كانوا يركبون الجمال ، أو يركبون سفن الفضاء .

قد يحدث التغير عن طريق الفهم والتفسير ، وإدخال التأويلات على النصوص . وهذا باب خطر ، وخصوصاً فى مجال العقائد ، وقد فتحه من قبلنا على مصراعيه ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كلام الله ، فالأحوط إغلاق هذا الباب الذى تهب منه رياح الفتنة والتزييف ، وإبقاء النصوص على دلالتها الواضحة غير المتكلفة ، وإن تفهم كما كان يفهمها الذين تلقوها عن الرسول – ﷺ – ومن تبعهم بإحسان .

وبذلك نسلم من مغبة التأويل الذى لا نعلم : هل يوافق مراد الله أم لا ؟ والذى قد ينتهى بقوم – كما حدث بالفعل – إلى تأويلات باطنية ، وتحريفات شركية وكفرية ، هى أبعد ما تكون عن طبيعة الإسلام . كما نسلم من التفرق والأختلاف الذى أهلك أهل الكتاب من قبلنا ، نتيجة تعدد التأويلات وتعدد الأهواء وهو ما وقعت فيه الفرق عندنا ، اتباعا لسنن من قبلنا ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع .

* *

● فى العبادات :

٢ – وتتمثل الثوابت كذلك فى (العبادات) التى فرضها الله على عباده ، قياماً بواجب شكره ، وحق ربوبيته لهم ، مثل الشعائر الركنية الأربع ، التى تمثل أركان الإسلام ومبانيه العظام : الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه ، وتزيد من رصيده عنده ، وما يلحق بها من عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن .

فهذه العبادات ثابتة باقية ، لا يدخل عليها تطوير ولا تغيير فى جوهرها وأصولها . فالصلوات خمس فى اليوم والليلة ، وكل صلاة منها عدد معروف من الركعات ، وكل ركعة منها أقوال وأفعال معينة : قيام وقراءة وركوع وسجود ، وتكبير وتسبيح وتشهد وتسليم ، وستظل هذه هى الصلاة . عاش الناس فى القرن الأول أو الثلاثين ، كانوا يسكنون فى الأكواخ أو فى ناطحات السحاب ، وكذلك الزكاة والصيام والحج .

ولكن قد تجدّ مسائل فى أداء هذه الفرائض ، قد يحدثها التطور ، فتحتاج إلى اجتهاد جديد ، فى ضوء النصوص الثابتة والقواعد الشرعية المقررة ، كالصلاة بالنسبة لرواد الفضاء ، وأين تكون قبلة من يصلى فوق القمر ؟ والصلاة والصيام فى المناطق القطبية والقريبة منها وصلاة من لا يجد وقت العشاء ، وإحرام ركاب الطائرات فى الحج أو العمرة ... والزكاة فى الأموال النامية الجديدة كالعمارات والمصانع والأسهم وغيرها . وتناول الحقن المغذية أثناء الصيام ، وتسجيل القرآن فى أسطوانة أو شريط : هل له حكم المصحف أم لا ؟ .

وقد يدخل التطور فى تطبيق هذه العبادات ، كاستخدام البوصلة فى تحديد القبلة ، أو مكبرات الصوت فى الأذان ، أو المراصد فى رؤية الهلال ، أو الحاسبات الآلية فى حساب الزكاة ، أو الطائرات فى نقل الحجيج ، ولكن مثل هذه التطورات لا علاقة لها بالعبادات ذاتها .

المهم أن جوهر العبادات لا يتغير ، ولا يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال ، فهى من الثوابت الخالدة فى رسالة الإسلام ولا جدال .

* *

● فى القيم الأخلاقية :

٣ – ومن الثوابت كذلك : (القيم الأخلاقية العليا) ، وأمهات الأخلاق العملية التى تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له ، والرجاء فى رحمته ، والخشية من عقابه .. وعلاقته بنفسه مثل : النظافة والعفة والحياء والصبر والشجاعة والعزة ومحاسبة النفس .. وتحدد علاقته بأسرته مثل : الرعاية للحقوق الزوجية ، وحقوق البنوة ، وبر الوالدين وصلة الرحم ، وتحدد علاقته بالمجتمع مثل : قول الصدق ، وإنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد ، ورعاية الأمانة ، ورحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، والعدل مع الصديق والعدو ، والبر بالناس وفعل الخير للجميع، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التى بعث النبى – ﷺ .– ليتممها .

وفى الجانب السلبى : أمهات الرذائل التى حذر الإسلام منها أشد التحذير ، مثل : القتل والسرقة والزنى والشذوذ الجنسى وشرب الخمر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والحسد والبغضاء والكبر والرياء وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، وشهادة الزور ، والكذب ، والغيبة والنميمة ، والخيانة ، وسوء الظن ، والغدر والقسوة والظلم . فكل هذه حرام ، بل من أكبر المحرمات عند الله .

وهذه كلها – سواء فى الجانب الإيجابى أم السلبى – ثابتة راسية كالجبال. فالعفة الجنسية مثلاً فضيلة واجبة . والزنى رذيلة محرمة . عاش الإنسان فى بدو أو حضر . وفى مجتمع زراعى ، أو صناعى ، والحياء فضيلة لازمة ، وخصوصاً للأنثى ، أمية كانت أو متعلمة . فى القرن الأول ، أو فى القرن العشرين أو الأربعين ... وهكذا ، فمضى الزمن ، وتطور الأوضاع ، لا يحيل الفضائل إلى رذائل ، ولا يقلب الرذائل إلى فضائل .

كل ما فى الأمر أن العرف قد يكون له دخل فى بعض الأحيان ، فى تحديد بعض التفصيلات ، كأن يعتبر لوناً معيناً من الحديث أو المشى خارجاً عن الحياء أم لا ، وطريقة معينة فى اللبس خارجة عن الحشمة الشرعية أم لا . كما ينظر فى زى معين : هل هو تشبه بالرجال أو لا ؟ وهل فيه تشبه بالكفار أم لا ؟ ونحو ذلك مما يحتمل الاجتهاد ولا يمس جوهر القيم والأخلاق .

* *

● فى الأحكام القطعية :

٤ – ومن الثوابت أيضاً : (الأحكام القطعية) فى شؤون الفرد والأسرة والمجتمع والحكم والعلاقات الدولية ، التى ثبتت بالنصوص المحكمة وأجمعت عليها الأمة ، واستقر عليها الفقه ، مثل : إباحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، بما يتبعها من قيود وشروط ، وإيجاب النفقة على الزوج ، وإعطائه درجة القوامة على الأسرة ، وتوريث الأولاد : للذكر مثل حظ الأنثيين. ومثل : شرعية الملكية الفردية ، وحل البيع وحرمة الربا ، وإيجاب الرضا فى العقود ، والوفاء بها ، والترخيص فى بيع المسلم ، وجواز الرهن ، والوكالة والحوالة ونحوهما من العقود : ووجوب إقامة الحدود – بشروطها – على المرتكبين لجرائمها ، والتعزير فى كل معصية لا حد فيها ولا كفارة ... الخ .

فهذا النوع من الأحكام مع الثوابت الأخرى هو الذى يمثل (الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية) للأمة ، على اختلاف البيئات والأقطار ، وتغير الأعراف والأعصار .

* *

● المتغيرات المتجددة :

وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات ، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهـــاد وتعدد الأفهام . والاجتهاد علاقة ثلاثية بين المجتهد والواقعة والدليل ، ومهما يحاول المجتهد أن يتحرر من ذاتيته ، وينظر إلى الدليل بتجرد وموضوعية ، فالواقع أن المجتهد ابن زمانه وبيئته ، ولا بد أن يتركا « بصماتهما » على تفكيره ، شاء أم أبى ، كما أن الواقعة نفسها حدث متأثر بزمانه ومكانه ، من حيث وقعها على الأنفس وتأثيرها فى الناس .

ولا عجب أن تتغير هذه الأحكام الثابتة بالاجتهاد ، بتغير الزمان والمكان والعرف والحال ، وهى الموجبات التى تؤثر فى اجتهاد المجتهد وفتوى المفتى ، وقضاء القاضى .

وهنا كتب الإمام ابن القيم فصله الممتع فى كتابه الشهير « إعلام الموقعين » عن تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد والنيات ، ومما نقله فى ذلك ما ذكره عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه مر على قوم من التتار أيام سطوتهم وطغيانهم ، وكانوا يشربون الخمر سادرين فى لهوهم ومنكرهم ،

فأنكر عليهم بعض أصحابه ، فقال لهم ابن تيمية : دعهم ، فإن الله إنما حرم الخمر ، لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء ! .

وكتب الإمام شهاب الدين القرافي المالكي فصله القيم فى كتابه « الأحكام فى تمييز الفتاوى من الأحكام » عن تغير الفتوى بتغير العوائد والأعراف فيما كان من الأحكام مبنياً عليها .

وكتب بعدهما علامة الحنفية ابن عابدين - الذى أصبحت حاشيته الشهيرة ورسائله عمدة المتأخرين فى المذهب - رسالته المسماه « نشر العرف فيما بنى من الأحكام على العرف » .

وليس هذا التغير مقصوراً على الأحكام المبنية على العرف فقط ، أو الأحكام الثابتة بالاجتهاد فيما لا نص فيه ، عن طريق القياس والاستحسان ، والاستصلاح ، وغيرها فحسب .

بل يدخل فى ذلك كثير من الأحكام الثابتة بالنصوص الظنية أيضاً .. وبخاصة هذا النوع من الأحكام ، الذى بنى على رعاية مصلحة زمنية أو عرف قائم ، فينبغى إذا تغيرت المصلحة أو تغير العرف ، أن يتغير الحكم ، فإنه يدور مع علته وجوداً وعدماً .

مثال ذلك : قوله ﷺ : « الميزان ميزان أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » .

فالحديث يقصد إلى تقرير مبدأ هام فى التعامل بين الناس . وهو الرجوع فى المعايير إلى ما انضبط واشتهر عند أهله ، وأصبح من الدقة والإتقان عندهم بحيث يحتكم إليهم ، ويعول عليهم . وقد كان أهل مكة أهل تجارة وتعامل بالموزونات : الدراهم والمثاقيل والأواقى ونحوها . فضبطوها وأتقنوها .. أما أهل المدينة فكانوا أهل زرع وثمر ، فكان جل تعاملهم بالمكيلات ، من المد والصاع ، ونحوهما ، فضبطوها وأتقنوها . فجاء هذا الحديث النبوى الشريف يقرر الرجوع فى كل معيار إلى البلد الذى عرف به ، واختص بإحكامه وتدقيقه. فاعتبر المرجع فى الميزان أهل مكة والمرجع فى المكيال أهل المدينة .

ولكن إذا جد فى عصرٍ ما - كما فى عصرنا هذا - موازين أو مكاييل أخرى أدق وأيسر فى الحساب وأسهل فى التعامل ، مثل الجرام ،

والكيلوجرام ، ونحوها من المعايير العشرية ، فهل يقف الحديث النبوى المذكور عقبة دون هذا التطور ؟ .

كلا ، فإن هذا النص إنما ورد ، بناء على وضع قائم قد تغير ، وهو يسعى إلى هدف معين فى ضبط معاملات الناس ، وهو ما يتحقق على وجه أفضل بالانتقال إلى هذه المعايير الجديدة . فإذا اعتبرنا هذه المعايير ، فقد عملنا بروح الحديث وحققنا فى الواقع هدفه الذى ورد لأجله ، وإن لم نعمل بلفظه .

ولذلك قبل المسلمون فى أنحاء العالم التعامل بهذا النوع من المعايير الجديدة ، دون نكير من أحد ، فكان إجماعا على جوازه .

ومن ذلك النص على أن لزكاة الأثمان أو النقود نصابين أحدهما للذهب ، والثانى للفضة ، وبينهما تفاوت شاسع ، بحيث يمكن أن يكون الشخص غنياً تجب عليه الزكاة إذا قدر ما معه من النقود بالفضة ، فإذا قدرته بالذهب تغير الوضع ، وربما أصبح فقيراً يستحق الزكاة ! .

فهل قصد الرسول ﷺ ذلك ؟ أم تصادف أن كان هناك نقدان يتعامل الناس بهما ، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة ، ويصرف أحدهما بقيمة معينة من الآخر ، والآن قد تغير الحال كله ، ولم يعد ثمة نقود ذهبية ، ولا فضية تذكر ، فلا بد من النظر فى أصل القضية واعتبار أحد النقدين هو الأساس فى تقدير النصاب .

وقد نظرنا فى ذلك وبحثنا فى « فقه الزكاة » فرأينا أنه ليس لزكاة النقود اليوم إلا نصاب واحد ، كما رأينا مع بعض علماء العصر : أن الأوفق هو اعتبار النصاب بالذهب .. أى العشرين ديناراً التى وردت بها الآثار ، ويساوى وزنها اليوم على أرجح الطرق فى التقدير ٨٥ جراماً . فمن كان عنده نقود بلغت قيمتها قيمة هذا القدر من الذهب – ولو غالباً لا خالصاً – فقد ملك النصاب .

وهناك بعد ذلك شؤون الحياة المتغيرة من زراعة وصناعة ، وطب وهندسة ، وما إلى ذلك من العلوم التجريبية وتطبيقاتها فى الحياة اليومية ، فهذه ونحوها متروكة لعقول البشر وتجاربهم وممارساتهم – ليس عليهم إلا أن يحكموا فيها منطق العقل والعلم والتجربة ، وهى التى ورد فى مثلها الحديث الصحيح : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والإسلام بهذا التوازن يجمع بين الثبات والتطور ، أو الثبات والمرونة فى تناسق بديع .

إنه الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة فى الوسائل والأساليب . الثبات على الأصول والكليات . والمرونة فى الفروع والجزئيات . الثبات على القيم الدينية والأخلاقية . والمرونة فى الشؤون الدنيوية والعلمية .

والإسلام بهذا ، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة ، ومع طبيعة الكون الكبير عامة . فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإنسان ، وفطرة الوجود .

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها . ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقى الإنسان ، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور .

وأما طبيعة الكون ، فهو ثابت فى جوهره وسننه ، متغير فى أجزائه وصوره .

فلا عجب أن تأتى شريعة الإسلام ، ملائمة لفطرة الكون ، وفطرة الإنسان ، جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة والتطور .

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم ، أن يعيش ويستمر ويرتقى ، ثابتاً على أصوله وقيمه وغاياته ، متطورا فى معارفه وأساليبه وأدواته .

فبالثبات ، يستعصى هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء ، أو الذوبان فى المجتمعات الأخرى ، أو التفكك إلى عدة مجتمعات ، تتناقض فى الحقيقة ، وإن ظلت داخل مجتمع واحد فى الصورة .

وبالمرونة ، يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته ، حسب تغير الزمن ، وتغير أوضاع الحياة ، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية .

الخطر كل الخطر على الحياة الإسلامية أن نثبت ما من شأنه المرونة والتطور ، أو نطور ما من شأنه الثبات والخلود ، فتضطرب الحياة وتختل الموازين .

* * *

٣ - التحذير من اتجاهات التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام

ومما يميز تيار الوسطية الإسلامية : وقوفه عند خط الاعتدال بين المفرطين والمفرطين ، والتنبه - والتنبيه أيضاً - إلى وجوب الحذر من الاتجاهات المنحرفة- عن جهل أو عمد - فى تفسير الإسلام ، والتى تنتهى بتحريف الإسلام عن حقيقته ، كما أنزله الله على رسوله ، وأشد هذه الاتجاهات خطراً : ثلاثة ، لا يجوز لنا أن نغفل الحديث عنها هنا ، ولو بإيجاز واختصار :

* *

١ - اتجاه تجميد الإسلام :

من هذه الاتجاهات ما يعمل على تجميد الإسلام ، وصبه فى قوالب حجرية ، لا تقبل المرونة ولا تسمح بالتغير ، ولا تتسع لتفتح أو حوار .

يمثل هذا الاتجاه صنفان متناقضان :

١ - صنف يتمسك بأقوال الأقدمين من أئمة المذاهب وأتباعهم لا يحيد عنها ، ولا يرضى بها بديلاً ، معتقداً أن السلف لم يتركوا شيئاً للخلف . رافضاً كل اجتهاد جديد أيا كان صاحبه ، وكانت الحاجة إليه . فلا يقبل هؤلاء اجتهاداً انتقائياً ، ولا إنشائياً ، لا فردياً ، ولا جماعياً ، ظانين أن كتب الأقدمين تحوى كل شىء ، وفيها إجابة عن كل سؤال ، غافلين عما طرأ على الحياة من تغير هائل . وتطور كبير ، بعد الانقلاب الصناعى ، والتطور التكنولوجى ، والتواصل العالمى ، الذى جعل العالم (قرية كبرى) كما قال أحد الأدباء .

وإنى أسأل هؤلاء : هل يجدون فى كتب الأقدمين حكم زراعة الأعضاء فى الجسم البشرى ، وحكم الملاحة الجوية ، وصلاة رواد الفضاء ، وتخزين القرآن والحديث فى (الكومبيوتر) وغيرها وغيرها من القضايا الجديدة ؟ .

وهذا الصنف لا يمثل تياراً بارزاً فى قلب الصحوة الإسلامية ، وإن كان يمثل تياراً كبيراً فى قلب الأمة الإسلامية .

٢ - وصنف يدعى التمسك بالنصوص ، وخصوصاً من السنة ، رافضاً

أقوال المتقدمين والمتأخرين ، جاعلاً من نفسه (مذهباً خامساً) ، يحكم على المذاهب كلها ولا تحكم عليه ! يقول عن الأئمة العظام ، بل الصحابة الكرام : هم رجال ونحن رجال ! .

وأنا أسمى هؤلاء (الظاهرية الجدد) وإن لم يكن لهم علم الظاهرية ، ففيهم حرفيتهم .

وكثيراً ما يغفل عن طبيعة النصوص الجزئية ، ودلالاتها وملابسات ورودها : أهى عامة أم خاصة ، مطلقة أم مقيدة ، محكمة أم منسوخة ، ثابتة أو متغيرة ، موجبة أو مخيرة ، أصلية أم فرعية ، قطعية أم ظنية ؟ .

فلا بد من النظر فى هذا كله ، ليعلم ما يقبل تعدد الأفهام وما لا يقبل ، وما يحتمل وجهة نظر جديدة وما لا يحتمل ، وما تتغير فيه الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال ، وما لا يتغير بحال .

وهذا ما يحتاج إلى أهلية خاصة وأفق واسع ، كثيراً ما يفقده أولئك المتشددون الذين يحجّرون ما وسع الله .

وقد انتهى الجمود على بعض النصوص الجزئية دون ربطها بغيرها من النصوص والقواعد الكلية ، بأناس من هذا الصنف إلى ما انتهى إليه الخوارج من قبل ، فسقطوا فى هوة تكفير أهل القبـلة ، وإخراج الناس من الملة بالجمـلة .

ولو نظروا إلى القضية نظرة شاملة متوازنة ، وقابلوا النصوص بعضها ببعض ، وردوا المتشابهات إلى المحكمات ، والجزئيات إلى الكليات ، لاتضحت لهم الرؤية ، وسلم حكمهم من الغلو المهلك ، ولم يقعوا فى خطيئة تكفير المسلم .

لقد حذر الإسلام من التكفير ، إبقاء على الأصل ، وحملاً لحال المسلم على الصلاح ومطاردة للغرور الذى ينظر إلى الناس باستهانة واحتقار ، وإلى النفس باستعلاء واستكبار .

إن الإسلام لا يسمح ببابوية تصدر ضد الناس قرارات الحرمان أو تمنحهم صكوك الغفران ! .

* *

٢ - الاتجاه إلى تمييع الإسلام :

هذا الاتجاه المتشدد « تجميد الإسلام » تقابله اتجاهات متعددة أخرى تشترك كلها فى القصد إلى « تمييع الإسلام » وتفريغه من مضامينه الثابتة ، وأحكامه الخالدة .

هذه الاتجاهات المغرضة والمشبوهة - على اختلافها وتباينها - حاولت وتحاول جاهدة تحريف الإسلام عن حقيقته - ولىّ عنانه عن غايته ، وتطعيمه بعناصر غريبة عنه ، وحذف أشياء تعد من مقوماته الذاتية ، وتفسير مبادئه وأحكامه بما يخدم أهدافها ، ويتفق مع مصالحها .

فهناك اتجاه يمكن أن نسميه « تنصير الإسلام » أى تفسيره تفسيراً يذيب الفوارق بينه وبين النصرانية ، يسوى بين التوحيد والتثليث ، وبين القرآن المحفوظ والإنجيل المحرف ، ويزعم أن الجميع مسلمون : هذا مسلم عَبَد الله بشريعة محمد وذاك مسلم عَبدَ الله بشريعة المسيح ، واليهودى أيضاً مسلم ، فقد عبد الله بشريعة موسى !! .

ومما يدخل فى هذا الاتجاه : الحملات المنكرة على خصائص الإسلام فى أحوال الأسرة فى إباحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، والمحاولات المتكررة هنا وهناك لمنعهما ، وتحريم ما أحل الله ، تأثراً بالأفكار الغربية النصرانية .

وهناك اتجاه سماه بعضهم « بلشفة الإسلام » وهو يعمد إلى تفسير الإسلام تفسيراً يلصقه بالاشتراكية الماركسية ، أو يلصق به الاشتراكية الماركسية ، مستغلاً ما فى الإسلام من تقييد للملكية ، وإنصاف للطبقات الكادحة ، وحرب على السرف والترف والشح ، وجعل الناس شركاء فى ضروريات البيئة ، وحرص على تنمية الإنتاج ، وعدالة التوزيع وإقامة تكافل اجتماعى يشمل فئات المجتمع كلها .. الخ .

كما حاول أصحاب هذه الاتجاه تفسير أحداث السيرة النبوية ، ومواقف الصحابة ، وتاريخ الإسلام عموماً ، من خلال فلسفتهم الماركسية فى التفسير المادى للتاريخ ، حتى قسموا الصحابة بين يمين ويسار ، وأداروا المعارك من خلال ما زعموه من صراع الطبقات .

ولا غرو أن قرأنا وسمعنا من يجمع بين الشىء وضده، كما قال بعضهم: أنا مسلم ماركسى ، أو ماركسى مسلم ، وسمعنا دعوة إلى الإسلام اليسارى

أو اليسار المسلم ، وكذلك الإسلام الاشتراكى أو الاشتراكية الإسلامية ، وقرأنا عن اشتراكية الرسول واشتراكية عمر ، واشتراكية أبى ذر .

وهناك اتجاه ثالث مقابل للاتجاه الثانى ومضاد له ، ويمكن أن نسميه « رسملة الإسلام » أى تفسير الإسلام تفسيراً يجعله أقرب إلى الرأسمالية ، مستغلاً ما فى الإسلام من عناية بحرية الفرد وحقوقه ورعاية حوافزه الذاتية ، وإباحة الملكية الفردية ، وما يتبعها من التفاضل فى الأرزاق والتفاوت بين الأفراد والطبقات ، وشرعية الميراث والوصية ، وغير ذلك مما ينافى الفلسفة الجماعية التى تقوم عليها الماركسية ، فضلاً عن المادية الجدلية التى تعتبر الدين أفيون الشعوب .

ويدعم هذا الاتجاه تفسيره هذا ، بأن الرأسمالية تقوم فى جانبها السياسى على المبادىء الديمقراطية ، التى تتفق مع مبدأ الشورى والبيعة فى النظام الإسلامى .

ولا عجب أن قرأنا وسمعنا أيضاً عن الإسلام الليبرالى ، وعن الليبرالية الإسلامية ورأينا من يحاول تبرير الفوائد الربوية ، محرفاً كلمات الله عن مواضعها .

ويكفى للرد على كلا الاتجاهين السالفين وفساد دعواهما : أن كلاً منهما ينقض الآخر ، ولا يمكن أن يكون الإسلام فردياً وجماعياً ، رأسمالياً واشتراكياً فى الوقت ذاته ، ولكن الإسلام حوى أفضل ما فى المذهبين العالميين ، وتنزه عن مساوئهما . وهو على كل حال أسبق منهما زمناً ، وأرسخ قدماً ، فلا يجوز أن ينسب المتقدم إلى المتأخر .

والحق أن الإسلام منهج متميز بذاته ، ولا يوصف إلا بأنه الإسلام . وقد يتفق مع هذا المذهب أو ذاك فى أصل أو أكثر من أصوله ، ولكنه مستقل عنها تماماً فى أهدافه وطرائقه ، فى مقوماته وخصائصه ، وفى أنواع أحكامه ، ومصادر إلهامه وإلزامه .

وأود أن أقول كلمة هنا لمن يدعو إلى الاشتراكية أو الديمقراطية بدعوى أن هذه ، أو تلك تتفق مع الإسلام : لماذا لا تدعون إذن إلى الإسلام نفسه ؟ لماذا تدعون الأصل وتدْعون إلى الفرع ؟ إذا كان فى هذه المذاهب المستحدثة ما فى الإسلام ، فقد أغنانا الله تعالى بالإسلام ، وإن كان فيها ما يخالف الإسلام فلا ترضى بغير الإسلام بديلاً .

* *

٣ - الاتجاه إلى تجزئة الإسلام :

وثالث هذه الاتجاهات هو الاتجاه إلى تجزئة الإسلام ، وتقطيع أوصاله .

فالإسلام منهج كامل لحياة البشر ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية ، دينية ودنيوية ، مثالية وواقعية ، فلا بد أن يؤخذ الإسلام كله كما أمر الله ، عقيدة وعبادة ، وأخلاقاً ومعاملة ، وتشريعاً وتوجيهاً وأخوة وتنظيماً .

ومما يؤسف له أن الإسلام ابتلى بقوم جعلوه لحماً على وضم ، فأعملوا فى كيانه المتماسك سكين التقطيع والتجزئة ، مغيرين لطبيعته التى أنزله الله عليها .

فهناك من يريد هذا الدين مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل ، وحسبك أن تنطق بالشهادتين لتأخذ صكاً بدخول الجنة والنجاة من النار . مع أن الإيمان الحق لا يوجد بلا عمل . كما يتضح ذلك من مئات النصوص من القرآن والسنة .

ومنهم من يريده عبادة بلا أخلاق ، أو أخلاقاً بلا تعبد ، برغم قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) ، وقول الرسول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

ومنهم من يريده عقيدة وعبادة وأخلاقاً ، ولا يريده تشريعاً ولا نظاماً للحياة .

إنه مسلم فى المسجد يؤدى فرض الله ويقرأ كتاب الله ، ولكنه إذا خرج من المسجد تعامل بالربا الذى حرمه الله ، واحتكم إلى محاكم تقضى بغير ما أنزل الله ، واعتنق أفكاراً مضادة لما شرع الله .

إنه فى المسجد دينى ، وفى خارج المسجد علمانى ، يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، يأخذ من القرآن آية الكرسى ، يتلوها ويتبرك بها ، ولا يأخذ آية المداينة ، وكلتاهما فى سورة واحدة . يتمثل أمر الله إذا قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (٣) ويتوقف فى أمره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ (٤) أو ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ (٥) ، وكلها واردة فى سورة واحدة بصيغة واحدة .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والحاكم وصححه وأقروه ، عن أبى هريرة .

(٣) البقرة : الآية ١٨٣ . (٤) البقرة : الآية ١٧٨ . (٥) البقرة : الآية ٢٤٦ .

يؤمن ويعمل بقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (١) إلى آخر آية الطهارة المعروفة .

ولكنه لا يقف هـذا الموقف من قوله تعالى فى نفس السورة ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقوله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ * ... هُمُ الظَّالِمُونَ * ... هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

لقد كان الغالب على عمل الناس فى العصور الماضية الزيادة فى الإسلام بالإحداث والابتداع وإضافة ما ليس من الدين إليه ، والتقرب إلى الله بما لم يشرعه ، ودخل فى دين الله بدع ما أنزل الله بها من سلطان ولا قام عليها من برهان ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

أما هذا العصر فمحنة الإسلام فيه تتمثل فيمن يريدون أنم يحذفوا منه ما هو من صلبه ومن مقوماته ومن خصائصه .

ولا غرو أن قامت فى الهند نحلة جديدة تحت شعار نبوة زائفة ، كل همها أن تحذف من الإسلام فريضة الجهاد فى سبيل الله ، ليبقى الإسلام ضعيفاً أعزل بلا قوة ، ويعيش المسلمون تحت سلطان الكفار ، يطيعونهم ولا يعصون ، ويستسلمون ولا يقاومون ، لأن طاعة أولى الأمر واجبة ولو كانوا كفاراً غاصبين ! .

وقام فى بعض بلاد المسلمين من يفصل بين الإسلام والحكم ، وينادى به ديناً بلا دولة ، وعقيدة بلا شريعة ، وقرآناً بلا سلطان ! .

وهذه الدعاوى كلها يرفضها جزماً منطق الإسلام أصولاً وفروعاً .

إن الإسلام فى عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته ، وحدة مترابطة ، لا يقبل التجزئة ، ولا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها ، فإن الذى شرعها واحد وهو الله تعالى الذى أمر بطاعته فيها ، وحذر من تركها أو ترك بعضها .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٣٨ .
(٣) سورة المائدة : الآيات ٤٤ – ٤٥ – ٤٧ .

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) أى ادخلوا فى شرائع الإسلام جملة ، ولا تطيعوا الشيطان فى الإعراض عن شىء منها .

ويقول سبحانه ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

والتحذير هنا من دسائس غير المسلمين واتباع أهوائهم التى تحاول دائماً أن تفتن المسلم عما أنزل الله إليه من كتاب ، وما يشرع له من أحكام ، إن لم يكن عن الكل ، فعن بعض ما أنزل الله . وربما رضوا بذلك كخطوة أولى تتبعها خطوات ، على أن فتح باب التفريط فى جزء من دين الله لا يؤدى إلى ضياع الدين كله .

ومن هنا أنكر الله تعالى فى كتابه على بنى إسرائيل تجزئتهم لدينهم ، وأخذهم ببعض منه وتركهم لبعض فقرعهم بهذا الأسلوب الشديد البالغ الشدة : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

٤ ـ الفهم الشمولى للإسلام

وإذا كان تيار الوسطية ، يرفض الأفهام التى تقوم على تجزئة الإسلام ، فإنه يتميز بفهمه الشمولى للإسلام ، فهو لا يركز على شعبة من الإسلام دون شعبة ، ولا بعد دون بعد ، بل يسلط الأضواء عليها جميعاً ، وبخاصة ما أهمله المسلمون ، أو أعطوه دون حقه وحجمه فى تعاليم الإسلام ، ومن هنا كان الاهتمام بالأبعاد الخمسة التالية :

شعبة تتجه إلى النفس فتصلحها بالتزكية . وهذا هو البعد الإيمانى .

وشعبة تتجه إلى المجتمع فتصلحه بالعدالة . وهذا هو البعد الاجتماعى .

وشعبة تتجه إلى الحكم فتصلحها بالشورى . وهذا هو البعد السياسى .

وشعبة تتجه إلى النظم فتصلحها بالتشريع . وهذا هو البعد التشريعى .

وشعبة تتجه إلى الحياة فتصلحها بالعمارة . وهذا هو البعد الحضارى .

* *

● البعد الإيمانى :

فأما الشعبة الأولى – أو البعد الأول – فهى أساس البناء كله ، فالمجتمعات لا تصلح إلا بصلاح الأفراد ، والأفراد لا يصلحون إلا بصلاح الأنفس ، والأنفس لا تصلح إلا بالتزكية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

ومن هنا كانت مهمة الرسول – ﷺ – فى أمته أنه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٢) . والتزكية شىء أعمق من التعليم . التعليم يتصل بالرأس ، والتزكية تتصل بالنفس ، والتزكية مشتقة من « زكا – يزكو » إذا طهر ونما ، فهى تطهير وتنمية معاً . أو تخلية وتحلية : تخلية من الرذائل ، وتحلية بالفضائل ، ومكارم الأخلاق التى بعث الرسول ليتممها .

---

(١) سورة الشمس : الآية ٧ – ١٠ . (٢) سورة الجمعة : الآية ٢ .

إن سنة الله فى التغير الاجتماعى ، أن يسبقه تغيير نفسى عميق ، يجعل الفرد كأنه إنسان جديد ، حين تتغير أهدافه وآماله وحوافزه ومفاهيمه ، ونظرته إلى نفسه وإلى الكون والحياة من حوله ، وإلى رب العالمين من فوقه .

إنه لم يغير اسمه ولا صورته ، ولكن تغيّرت أعماقه ، فأصبح قادراً على تغيير سلوكه وعلاقاته ، وتغيير الحياة فى محيطه ، وهذا منبع التغيير للمجتمع كله ، كما قرر ذلك القرآن : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

والعامل الأساسى فى هذا التغيير وهذه التزكية هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو التوحيد الذى يجعل المؤمن يستعلى على متاع الدنيا وزينتها ، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وهو الذى يحرره من الخضوع لمخلوق مثله فى الأرض أو فى السماء من رجال الملك أو من رجال الدين ، لأن شعاره : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ (٢) .

وهو الذى يمنح صاحبه الثقة والقوة ، فلا يهن ولا يضعف ولا يستكين مهما نزل به من المحن والشدائد ، لأنه يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهو يقرأ دائماً : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وهو الإيمان الذى غير عرب الجاهلية – عرب الأصنام والخمر والزنى والربا والمنكر والبغى – إلى صحابة محمد ﷺ : أبر الناس قلوباً ، وأطهرهم نفوساً ، وأصلحهم أعمالاً ، وأزهدهم فى الدنيا وأحرصهم على الدين .

والإيمان الإسلامى ليس مجرد معرفة ذهنية تنير العقل بما تكشف له من حقائق الوجود الكبرى : الله والوحى والإنسان والمسؤولية والجزاء .

إنه أعمق من ذلك وأوسع مدى . إنه نور يضىء العقل ، ويقين يغمر القلب ، ومثل تحفز الإرادة ، وضمير يوجه السلوك .

وإن شئنا عبرنا بما عبر به الأقدمون من سلفنا ، فقلنا : إنه اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح والأركان .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ . (٢) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٥١ .

ولا غرو أن عرض لنا القرآن الكريم الإيمان مجسداً فى أعمال وأخلاق ومواقف، لتكون مرآة ، يرى كل امرىء فيها نفسه،ماذا أخذ منها، وماذا ترك .

أنظر إلى قوله تعالى فى القرآن المكى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وإنظر فى القرآن المدنى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٤) .

وعرضت السنة النبوية الإيمان فى بضع وسبعين شعبة ، تتمثل فيها العقائد السليمة ، والعبادات الخالصة ، والأخلاق الفاضلة والمعاملات المستقيمة ، والعلاقات الطيبة ، والمثل الإنسانية الرفيعة .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١ – ٩ . (٢) سورة الحجرات : الآية ١٥ .
(٣) سورة التوبة : الآيتان ١١١ ، ١١٢ . (٤) سورة التوبة : الآية ٧١ .

وحسبنا أن نقرأ هذه الأحاديث :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

« المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

« ليس بمؤمن من بات شبعان ، وجاره إلى جنبه جائع » .

كما عرض لنا القرآن الإيمان فى مواقف بطولية نرى فيها أثر الإيمان يغنى عن كل بيان .

اقرأ قصة سحرة فرعون ، وانظر كيف غيرهم الإيمان ، وأنشأهم حلقاً آخر ، من (حواة) يسحرون أعين الناس بالباطل ، إلى (هداة) يدعون الناس إلى الحق) .

لقد جاؤوا إلى فرعون ، ينتظرون الأجر والزلفى منه ، إن كانوا هم الغالبين ، ويقسمون بعزته إنهم لهم الغالبون ، ولكنهم لما وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون انكشف القناع عن قلوبهم ، ومثلت الحقيقة الكبرى أمام أعينهم ، فأعلنوها صريحة فى وجه فرعون لم يرعبهم تألهه ، ولم يرهبهم جبروته ، ولم يثنهم وعيده وتهديده بالقتل والصلب ، لقد جعل الإيمان من ضعفهم قوة تتحدى كبرياء فرعون وجنوده وتقول له فى قوة المؤمنين ، وإيمان الأقوياء : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ (١) .

إن البعد الإيمانى ليس مجرد بعد روحى . إنه كذلك – كما رأينا – بعد أخلاقى . وبعد بطولى .. بعد يجعل الإنسان لسان حق ، وشعاع هدى ، وينبوع خير ورحمة للعالمين ، وفى الحديث : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » .

* *

(١) سورة طه : الآيات ٧٢ – ٧٥ .

● البعد الاجتماعى :

وأما الشعبة الثانية فهى التى تتجه إلى المجتمع ، لتقيم فيه العدل ، وتزيل المظالم والبغى ، وتعطى كل ذى حق حقه .

لقد أعلن القرآن الكريم أن إقامة العدل بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) . والقسط هو العدل .

وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تنوه بالعدل والقسط وتثنى على المقسطين . كما أعلنت حرباً لا هوادة فيها على الظلم والظالمين وعلى كل من يعينهم أو يركن إليهم . بل كل من يسكت عنهم ولا ينكر عليهم ، فإن الساكت عن الحق قريب من الناطق بالباطل . بل جعل القرآن مجرد الركون إلى الظلمة موجباً لعذاب الله وسخطه : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٢) .

وأشد أنواع الظلم : هو ظلم الأقوياء للضعفاء ، ظلم الأغنياء للفقراء ، ظلم أرباب العمل للعاملين . أن يعمل الإنسان الكثير ولا يجد القليل ، ثمرة لعمله . وألا يعمل آخر شيئاً ويجد كل شىء ! أن يوجد فى الناس من يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع ، وبالقرب منه من يضع يده على بطنه أيضاً يشكو زحمة التخمة .

ويزيد الأمر سوءاً أن يكون الذى يشكو الجوع والحرمان هو العامل الكادح المكدود فهو يزرع ولا يحصد ، وأن يكون الذى يشكو التخمة هو القاعد المتبطل ، الذى يجنى ثمار ما غرسته أيدى الآخرين المتعبين ! .

إن الإسلام لا يدع هذه الفوارق تتسع ، فيتسع معها الخرق على الراقع ، بل يتدخل – بقوانينه ووصاياه ، بوازع السلطان ووازع القرآن – للحد من طغيان الأغنياء ، والرفع من مستوى الفقراء ، وتحقيق الكفاية التامة لكل من يعيش فى ظل دولته ، مسلماً كان أو غير مسلم ، عن طريق تيسير العمل الملائم له إن كان قادراً ، وعن طريق الكفالة من المجتمع والدولة إن كان عن العمل عاجزاً ، أو كان قادراً ولم يجد عملاً مناسباً أو كان دخله من عمله لا يتمم كفايته من مطالب الحياة .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ . (٢) سورة هود : الآية ١١٣ .

وإلى جانب ذلك حرم الإسلام على الأغنياء السرف والترف والربا والكنز ، واعتبر المال الذى فى أيديهم مال الله ، وهم مستخلفون فيه ، وفرض عليهم فيه حقوقاً مؤكدة الزكاة أولها وليست آخرها .

والإسلام مستعد لتجييش الجيوش وإعلان القتال لانتزاع حق الفقراء من **براثن الأغنياء** ، كما فعل الخليفة الأول الصديق رضى الله عنه .

وإذا كانت بعض الأديان قد عنيت بالفرد وبالجانب الروحى فيه خاصة ، فإن الإسلام فى كتابه وسنته – إلى جانب عنايته الكبيرة بالفرد – قد عنى بالمجتمع الإنسانى ، وعلاج مشكلاته وأدوائه ، وذلك لأنه دين إنسانى ، جاء بتكريم الإنسان ، وتحرير الإنسان ، ففيه تتعانق المعانى الروحية والمعانى الإنسانية ، وتسيران جنباً إلى جنب .

والإسلام لا يتصور الإنسان فرداً منقطعاً فى فلاة ، أو منعزلاً فى كهف أو دير ، بل يتصوره دائماً فى مجتمع ، يتأثر به ويؤثر فيه . ويعطيه كما يأخذ منه ، ولهذا خاطب الله بالتكاليف الجماعة المؤمنة لا الفرد المؤمن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) وكانت مناجاة المؤمن لربه فى صلاته بلسان الجماعة لا بضمير المفرد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) . لهذا قلنا : إن مقتضى عناية الإسلام بالإنسان ، العناية بالمجتمع كله ، فالإنسان اجتماعى بالفطرة ، أو مدنى بالطبع ، على حد تعبير القدماء .

وإذا كان الإسلام قد عنى بالمجتمع عموماً ، فإنه عنى عناية خاصة بالفئات الضعيفة فيه ، وهذا سر ما نلاحظه فى القرآن الكريم من تكرار الدعوة إلى الإحسان باليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب . يستوى فى ذلك مكى القرآن ومدنيّه . وذلك لأن كل واحد من هذه الأصناف يشكو ضعفاً فى ناحيته ، فاليتيم ضعفه من فقد الأب ، والمسكين ضعفه من فقد المال ، وابن السبيل ضعفه من فقد الوطن ، والرقيق ضعفه من فقد الحرية .

وإذا كانت بعض المجتمعات تهمل هذه الفئات الشعبية الضعيفة ، ولا تلقى لها بالاً فى سياستها الاجتماعية والاقتصادية ، ولا تكاد تعترف لها بحق ، لأنها لا ترجى ولا تخشى ، وليس بيدها خزائن المال ، ولا مقاليد

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٣ . (٢) سورة الفاتحة : الآيتان ٥ ، ٦ .

السلطان – فإن رسول الإسلام محمداً ﷺ – قد نبه على قيمة هذه الفئات ومكانها من المجتمع ، فهى عدة النصر فى الحرب ، وصانعة الإنتاج فى السلم ، فبجهادها وإخلاصها يتنزل نصر الله على الأمة كلها ، وبجهودها وكدحها فى سبيل الإنتاج يتوافر الرزق لها .

وإلى هذه الحقيقة يشير حديث النبى – ﷺ – لسعد بن أبى وقاص ، حين قال له فيما رواه البخارى : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » .

ومن هنا حرص الإسلام على أن تكون هذه الفئات الجاهدة المجاهدة ، مستريحة فى حياتها ، مطمئنة إلى أن معيشتها مكفولة ، وأن حقوقها فى العيش الكريم مضمونة ، بحيث يجب أن يوفر لكل فرد فيها على الأقل حد الكفاية ، بل تمام الكفاية من مطالب الحياة الأساسية ، إذا عجز عن العمل ، أو قدر عليه ولم يجده ، أو وجده ولم يكن دخله منه يكفيه أو يكفيه بعض الكفاية دون تمامها . على أن الإسلام لن يغفل من حسابه أن القوى قد تطرأ عليه ظروف تجعله فى مركز الضعف والحاجة ، لغرم فى مصلحة خاصة أو عامة، أو لانقطاعه عن ماله ووطنه فى سفر وغربة ، أو لاضطهاده وإخراجه من وطنه على يد قوة طاغية من الداخل ، أو غازية من الخارج، ففرض لهذا النوع : (الغارمين وابن السبيل) من المساعدة والعون ما ينهض بهم إذا عثروا ، ويمدهم بالقوة إذا ضعفوا ، ويصلهم بالحياة وقد انقطعوا .

ولكن ما المورد المالى الذى يحقق هذه الأهداف ، ويفى بهذه المطالب ؟ هنا يأتى دور الزكاة التى جعل الشرع جل حصيلتها لهذه الأغراض الاجتماعية ، وهى ليست بالشىء الهيّن ، إنها العشر أو نصفه مما أنبت الله من الثروة الزراعية ، وربع العشر من الثروة النقدية والتجارية ، ونحو هذا المقدار – تقريباً – من الثروة الحيوانية ، وخمس ما يعثر عليه من الكنوز بالإضافة إلى خمس الثروة المعدنية والبحرية كما يرى بعض الفقهاء .

ولقد كان من روائع الإسلام ، بل من معجزاته الدالة على أنه دين الله حقاً : أنه سبق الزمن ، وتخطى القرون ، فعنى – منذ أربعة عشر قرناً مضت – بعلاج مشكلة الفقر والحاجة ، ووضع الفقراء والمحتاجين ، دون أن يقوموا بثورة ، أو يطالبوا – أو يطالب لهم أحد – بحياة إنسانية كريمة ، بل دون أن

يفكروا هم مجرد تفكير فى أن لهم حقوقاً على المجتمع يجب أن تؤدى ، فقد توارث هؤلاء على مر السنين والقرون أن الحقوق لغيرهم ، وأما الواجبات فعليهم !! .

ولم تكن عناية الإسلام بهذا الأمر سطحية ولا عارضة ، فقد جعلها من خاصة أسسه ، وصلب أصوله ، وذلك حين فرض للفقراء ، وذوى الحاجة ، حقاً ثابتاً فى أموال الأغنياء يعطى طوعاً بدافع الإيمان ، وإلا أخذ كرهاً بقوة السلطان .

* *

● البعد السياسى :

وأما الشعبة الثالثة ، فهى التى تقرر الشورى قاعدة للحكم فى الإسلام .

ولا بد لنا من التأكيد على هذه القاعدة الإسلامية الجليلة ، التى اعتبرها القرآن أحد مقومات المجتمع المسلم ووضعها بين الصلاة والإنفاق مما رزق الله ، وهما من أركان الدين .

يقول تعالى فى وصف مجتمع المؤمنين فى القرآن المكى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) .

ويقول فى القرآن المدنى مخاطباً النبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٢) .

وإذا كان النبى المؤيد بالوحى مأمور بالمشاورة فغيره أولى :

وكان ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه ، فيما ينوبه من أمور ، وطالما نزل عن رأيه إلى رأيهم ، وخصوصاً إذا وجد الخبرة أو الكثرة معهم .

إننا نتبنى القول بوجوب الشورى ، وبأن نتائجها ملزمة ما دامت صادرة من أهلها فى محلها ، وحسب أمتنا ما لاقت من الطغاة والمستبدين .

أما حكاية (المستبد العادل) الذى لا ينهض بالشرق غيره كما قيل ، فهى مرفوضة ، إذ لا يجتمع العدل والاستبداد ، فالعادل لا يكون مستبداً ، والمستبد لا يكون عادلاً ، وكيف يكون عادلاً من يرى نفسه عليما بكل أمر ،

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وحكماً فى كل قضية ، لا يسأل عما يريد ، ولا يُسأل عما يفعل ، كأنما هو إله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا معقب لحكمه ؟! .

إن الإسلام يرفض الاستبداد والطغيان ، ويقيم الحكم على أساس البيعة والاختيار ، ثم على التشاور والتفاهم ، موجباً المشاورة على الحاكم ، والنصيحة على المحكومين ، ومن مجموع هذين تتكون المجالس الشورية .

وعندئذ لا حاجة لنا إلى استيراد الديمقراطية الغربية ، ففى شريعتنا ما يغنى عنها ، وما يعفينا من مساوئها الناشئة عن الروح المادية والنفعية والفردية التى هى من إفراز العقلية الغربية .

على أنه لا حرج علينا أن نقتبس من نقاط القوة فيها ما يلائم شعوبنا ، ولا يتعارض مع شريعتنا ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها .

إن الإسلام يرفض أن يفرض على المسلمين من يقودهم رغم أنوفهم ، ولو كان يقودهم من نصر إلى نصر ، فإن الذى يقاد رغم أنفه هو البهيمة العجماء ، وليس الإنسان المكرم – أى إنسان – فما بالك بالمؤمن ؟ .

إنه يذم إمام الصلاة الذى يؤم قوماً لا يرضون عن إمامته ، مع أنه يؤمهم فى عبادة . كما جاء فى الحديث عن الثلاثة الذين لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : « رجل أَمَّ قوماً وهم له كارهون .. » الحديث . فإذا كان هذا فى (الإمامة الصغرى) مذموماً مرفوضاً عند الله تعالى ، فكيف يقبل فى (الإمامة الكبرى) أن يقود رجل قوماً وهم له كارهون وعليه ساخطون ؟! .

إن الإسلام يرفض أن تزوج الفتاة البكر بغير إذنها ، وأن تفرض عليها حياة لا ترضى عنها ، فكيف يتصور أن يقبل الإسلام أن تجبر أمته على حياة لم تختارها ، ولم يؤخذ رأيها فيها ؟ .

إن الإسلام جعل أمر الأمة بيدها ، فهى التى تختار إمامها وحاكمها عن اقتناع ، وتبايعه عن رضا ، حين تجد فيه تحقق الشروط ، وتكامل الأوصاف العقلية والنفسية والخلقية والعملية اللازمة لقيادة الأمة ، وقد أفتى الإمام مالك بأن من بايع إماماً وهو مكره ، فإن بيعته باطلة ، لأن شرط البيعة توافر الحرية والاختيار .

فإذا اختارت الأمة حاكمها ، وبايعته طائعة راضية ، فمن حقها – بل من واجبها – أن تراقبه بأمانة ، وأن تحاسبه بدقة ، وأن تنصح له بإخلاص ، وأن

تعينه إذا أحسن ، وتقومه إذا أساء ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه ، فإن النصيحة لب الدين ، والتواصى بالحق والصبر ، أحد شروط النجاة من الخسران ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أحد مقومات المجتمع المسلم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١) ، كما أنه **أحد وظائف الدولة المسلمة المنصورة من الله** : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ **أَقَامُوا الصَّلاَةَ** وَآتَوُا الزَّكَاةَ **وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ** وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

والإمامة فى الصلاة مثال مصغر لإمامة الأمة فى الحياة ، وقد علم الإسلام المأمومين أن يصححوا الإمام إذا أخطأ ، ويذكروه إذا نسى ، حتى يردوه إلى الصواب ، وعليه أن يدع رأى نفسه لرأيهم ، وينزل عند قولهم ، ولو خالف ما يعتقده صواباً .

كما علم الإسلام المسلم ، أن يقول فى قنوته إذا أوتر – كما فى المذهب الحنفى : « نشكرك اللهم ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك » وهذا معناه زرع الثورة والتمرد على الظلم والفجور فى نفسية كل مصل قانت لله .

والأمة التى ملكها الإسلام حق تولية الحاكم ، هى التى ملكها حق تقويمه ، بل عزله إذا انحرف عن جادة الإسلام ، ولم يجد معه نصح ولا توجيه ، وخصوصاً إذا أتى كفراً بواحاً عندها فيه من الله برهان .

وقد قال أبو بكر رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وقال عمر : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومنى » .

وقبلهما قال النبى ﷺ : « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

ولا يرضى الإسلام عن أمة تؤيد حاكمها فى الصواب والخطأ وتسير وراءه فى الحق والباطل ، وتمدحه إذا عدل ، ولا تنقده إذا ظلم . ولو كان من باب الخوف والتهيب ، ويعتبر أمة من هذا النوع ، قد فقدت مبرر وجودها ، وبطن

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧١ . (٢) سورة الحج : الآية ٤١ .

الأرض خير لها من ظهرها ، « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منهم » .

والإسلام يندد بالجبابرة الطغاة المتألهين ، كما يندد بمن اتبعهم على باطلهم وينظم القرآن الكريم الرعية مع الراعى الظالم المتجبر فى سلك واحد إذا هم مشوا فى ركابه ، واتبعوا أمره ، كما قال تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١) . وقال فى فرعون : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٢) . وقال فى ذم عاد قوم هود : ﴿ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٣) .

وما لم تقم الأمة بهذا الواجب ، فهى معرضة لسخط الله وعذابه ، ونقمته العامة التى تنزل بالجميع ، فتصيب المقترفين للمنكر ، والساكتين عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٤) ، وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (رواه أبو داود والترمذى) .

* *

• البعد التشريعى :

والشعبة الرابعة من شعب الإسلام تتجه إلى الأنظمة والعلاقات ، فتصلحها بالتشريع الذى يحقق العدل ، ويقيم الموازين القسط . بل ما بعث الله الرسل ، ولا أنزل الكتب إلا ليقوم الناس بالقسط ، كما بين ذلك القرآن : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) .

ولهذا قال الإمام ابن تيمية : (لا بد للناس من كتاب هاد ، وحديد ناصر) يعنى أن الكتاب يمثل الحق ، والحديد يمثل القوة ولا تستقيم الحياة إلا بهما .

---

(١) سورة هود : الآية ٩٧ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٥٤ .
(٣) سورة هود : الآية ٥٩ .
(٤) سورة الأنفال : الآية ٢٥ .
(٥) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

ومن ثم اتفق المسلمون من جميع الفرق والمذاهب على أن الإسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة هى الأساس ، والشريعة هى البناء ، فقد جاء الإسلام منظماً لحياة الإنسان بوضع الأصول الضابطة لها ، والمنارات الهادية لمسيرتها ، ووضع الإشارات الحمراء عند خشية الصدام ، حتى أن أطول آية فى كتاب الله نزلت فى تنظيم شأن صغير من الشؤون المدنية للإنسان ، وهى (آية المداينة) .

وقد قام لخدمة الشريعة علم عظيم من علوم المسلمين ، هو (علم الفقه) وهو علم إسلامى المنشأ ، إسلامى المصدر ، إسلامى الوجهة ، إسلامى المنهج ، تفرغ له من نوابغ الأمة أئمة كبار ، فصلوا مسائله ، وقعدوا قواعده ، وضبطوا به الحياة الإسلامية ، فردية واجتماعية ، منذ يولد الإنسان إلى أن يموت ، بل قبل الولادة ، وبعد الوفاة .

كما وضعوا لضبط استدلالاته ، فيما فيه نص ، أو فيما لا نص فيه ، علماً جليلاً ، هو علم (أصول الفقه) الذى يعتبر من مفاخر التراث الثقافى الإسلامى وهو المعبر الأصدق عن (فلسفة المسلمين) أكثر من تمثيل مدرسة الفلسفة المشائية الإسلامية ، كما قال بحق شيخنا مصطفى عبد الرازق رحمه الله .

وللشريعة الإسلامية خصائص تميزها عن كل الشرائع والأنظمة ، سواء أكانت دينية أم وضعية :

فهى شريعة ربانية : لأن مصدرها الأساسى وحى الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، فهى تشريع عليم حكيم ، بر رحيم ، خلق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ويرقى به فرداً ومجموعاً : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وهى شريعة إنسانية : لأن الإنسان هو الذى يفهمها ، وهو الذى ينفذها ، ولأن محورها ومبناها على رعاية مصالح الإنسان فى المعاش والمعاد ، مصالحه الضرورية والحاجية والتحسينية ، والمحافظة على دينه وحياته وعقله ونسله وعرضه وماله ، فهى شريعة رب الإنسان من أجل صلاح الإنسان .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

وهى شريعة أخلاقية : ليست مهمتها تقنين ما تعارف عليه الناس – كما كان القانون الرومانى – بغض النظر عن صواب العمل أو خطئه ، خيريته أو شريته . ولكن مهمتها تقنين الأخلاق ، والنظرة إلى الإنسان من حيث أنه مكلف مسؤول ، قبل أن يكون مطالباً سائلاً .

وهى شريعة واقعية : فهى لا تحلق – كالطوباويين – فى مثاليات مجنحة ، بل تشرع للإنسان على الأرض ، تقدر دوافعه ، وتراعى ضروراته ، وترعى حاجاته ، ولا تغفل الأعذار الطارئة ، والأحوال الاستثنائية ، والظروف المخففة ، ولهذا كان من أوصاف رسولها عند أهل الكتاب أنه : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وهى شريعة منطقية : لأن أحكامها – فيما عدا التعبديات المحضة – معللة مفهومة ، فهى لا تجمع بين مختلفين ، ولا تفرق بين متماثلين ، ولهذا شرعت القياس لإعطاء الشيء حكم نظيره إذا اشتركا فى العلة الجامعة ، ولم يكن بينهما فارق معتبر ، وكان من أدلتها عند المحققين من فقهائها : الاستصلاح والاستحسان ورعاية العرف .. وغيرها .

وهى شريعة خالدة متجددة معاً : تجمع بين الثبات والمرونة ، فهى خالدة فى أصولها وكلياتها ومصادرها ، لأنها خاتمة الشرائع الإلهية ، ولهذا تكفل الله بحفظ مصدرها الأول وهو القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) ، وهو يتضمن حفظ السنة فإن حفظ المبين يقتضى حفظ بيانه ، كما قال الإمام الشاطبى .

وهى متجددة فى فروعها وجزئياتها : لأن الله تعالى أودع فيها من عوامل السعة والمرونة ، ما يجعلها صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، من اتساع منطقة (العفو) وهى منطقة الفراغ من النصوص التشريعية ، التى تركت للاجتهاد البشرى ، رحمة من الله غير نسيان ..ومن اهتمام الشريعة بالنص – غالباً – على المبادىء والأصول الكلية لا على الجزئيات والتفصيلات .. ومن قابلية معظم النصوص الجزئية لتعدد الأفهام والتفسيرات.. ومن تقرير محققى العلماء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ . (٢) سورة الحجر : الآية ٩ .

ولقد دخلت هذه الشريعة بلاد الحضارات العريقة ، فى فارس والعراق والشام ومصر ، وشمال إفريقيا ، والهند وغيرها .. فلم يضق ذرعها بجديد ، ولم يعجز فقهها يوماً أن يجد فى طبها دواء لكل داء ، وفى أصولها حلاً لكل مشكل .

ولا غرو أن استبحر فقهها ، وتعمقت أصوله ، وامتدت فروعه ، وتنوعت مدارسه ، وتعددت مذاهبه ، ما بين ظاهرى يتمسك بحرفية النص ، وقياسى يعمل بالرأى ، ومتوسط بين هذا وذاك ، ومجموعها يكون ثروة حقوقية لا نظير لها فى أمة من الأمم ، وهو ما شهد به الدارسون حتى من غير المسلمين .

ولقد مضت على الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرنا ، والشريعة الإسلامية هى المرجع الفذ فى كل شؤونها ، وعلاقاتها ، فهى أساس القضاء ، وأساس الفتوى ، وهى الدستور ، وهى القانون ، لا يفكر حاكم أو محكوم – مجرد تفكير – فى تجميدها أو البحث عن بديل لها ، كيف وهم يقرأون فى كتاب ربهم أنهم لا خيار لهم أمام حكم الله ورسوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (١) .

كما أنها تمثل فى اعتقادهم عدل الله بين عباده ، ورحمته فى خلقه ، وحكمه فى أرضه .﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

ولولا دخول الاستعمار الغربى إلى ديارنا منتهزاً غفلتنا وضعفنا وتفككنا ، وسعيه الدؤوب من أول يوم (لعلمنة) الفكر والتشريع . ما تصور أبعد الناس إغراقا فى الخيال ، أن تغدو القوانين الوضعية الأجنبية منافسة للشريعة الإسلامية الإلهية ، بله أن تطاردها وتعزلها عن سلطانها فى دارها ، وتحتل منصبها الذى لم يشاركها فيه أحد ألفاً وثلاثمئة عام .

كل ما كان يطالب به المستنيرون من أبناء الإسلام هو التحرر من ربقة التقليد والعصبية المذهبية ، وتجديد الاجتهاد فى فقه الشريعة ، وهو ما عبر بعضهم بفتح باب الاجتهاد ، مع أن أحداً لا يملك إغلاقه وقد فتحه رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة النور : الآية ٥١ . (٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

ولهذا لا أجد مبرراً لفريق من أبناء أمتنا يلعنون الاستعمار قديمه وجديده ، ومع هذا يتمسكون برواسبه ومخلفاته فى حياتنا الثقافية والتشريعية .

ولا أستطيع أن أفهم كيف نعطى - باختيارنا - الوضع الذى نشأ عن دخول الاستعمار أوطاننا ، وتحكمه فى رقابنا ، وسيطرته على مقدراتنا الثقافية والتعليمية والتشريعية والاجتماعية والسياسية - نعطى هذا الوضع شرعية البقاء ، والدفاع عن الذات ، ونمنحه الحق فى منافسة الشرعية الإسلامية الربانية ، بحيث يجوز لنا أن نفاضل بين الوضعين ، ونختار أى السبيلين ؟! .

* *

• الصحوة وتطبيق الشريعة الإسلامية :

إن مما يميز الصحوة الإسلامية المعاصرة تعالى صيحاتها للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية . فلم تعد همساً فى المجالس ، أو حديثاً عارضاً فى الأندية والحلقات ، بل دوياً هائلاً ، تردده الجماهير ، وتتجاوب به الآفاق فى جهات الدنيا الأربع .

ولم يعد بإمكان أحد أن يتجاهل هذا المطلب الشعبى ، الذى يكاد يحوز الإجماع لو استفتى الشعب عليه .

ومن حق الشعوب الإسلامية أن تطالب بالرجوع إلى شريعة ربها ، وأحكام دينها ، لتحل محل القوانين الوضعية الدخيلة ، التى فرضت عليها بقرارات فوقية منذ دخول الاستعمار الغربى إلى ديار المسلمين .

ولكن تيار الوسطية الإسلامية له هنا جملة ملاحظات أساسية يجب أن ينبه عليها :

١ - إن ما تريده الصحوة الإسلامية أكبر من مجرد تعديل مواد القوانين الوضعية بمواد إسلامية ، فالقانون وحده ، لا يبنى المجتمعات ، ولا يحيى موات الأمم ، ولا ينفخ الروح فى الشعوب الهامدة ، إنما تصنع ذلك العقائد والقيم والأخلاق .

ولهذا ينكر الإسلاميون الواعون حصر الدعوة إلى الإسلام فى الجانب القانونى ، وحصر الجانب القانونى فى تنفيذ الحدود والعقوبات . وكأن الإسلام كله لخص فى قطع يد السارق ، وجلد الزانى والقاذف والسكير ! وإن هذا وإن كان من الإسلام ، فليس هو كل الإسلام ، ولا أهم ما فى الإسلام ولا أول ما

يطلب في الإسلام ، ولو قرأنا المصحف وتدبرنا آياته ، لم نجد العقوبات تبلغ منها عشراً .

إن الإسلام عقيدة سليمة ، وعبادة خالصة ، وخلق قويم ، وعمل صالح وعمارة للأرض ، ورحمة للخلق ، ودعوة إلى الخير ، وتواص بالحق ، وتواص بالصبر ، وجهاد فى سبيل الله .

كما أنه تشريع وقانون ينظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فلا يجوز أن يطغى الجانب التشريعى على غيره من جوانب التربية والتوجيه التى تشمل سائر مجالات الحياة .

ولهذا ينادى تيار الوسطية الإسلامية بالدعوة إلى الإسلام كل الإسلام ، لا بمجرد تطبيق الشريعة بالمعنى الضيق الذى فهمه الكثيرون .

أجل ، إننا تريدها حياة إسلامية متكاملة ، حياة توجهها عقيدة الإسلام ، وتسودها مفاهيم الإسلام ، وتحركها قيم الإسلام ، وتقودها أخلاق الإسلام ، وتضبطها تقاليد الإسلام ، وأخيراً تحكمها تشريعات الإسلام .

٢ – إن الشريعة لا يمكن أن تطبق تطبيقاً حقيقياً إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيتها ، ويتعبدون لله بتنفيذها ، وهذا يجعلهم يحرصون على فهمها فهماً دقيقاً ، وعلى فقه أحكامها ومقاصدها فقهاً عميقاً ، ويتفانون فى تذليل العقبات أمامها ، كما يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها ، وأسوة حسنة لغير المقتنعين بها ، يراهم الآخرون فى إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم ، فيحبون الشريعة لما يرون من أثرها فى حياتهم .

وهكذا كان الصحابة والمسلمون الأوائل – رضى الله عنهم – أحب الناس الإسلام بحبهم ، ودخلوا فيه أفواجاً ، متأثرين بأخلاقهم وإخلاصهم ، فقد كان كل منهم قرآنا حياً يسعى بين الناس على قدمين .

إن عيب كثير من التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، التى كانت موضع المؤاخذة والتنديد من الناقدين والمراقبين : أنها نفذت بأيدى غير أهلها ، أعنى غير دعاتها ورعاتها . أى على أيدى أناس كانوا من قبل فى صف المناوئين لها ، أو على الأقل ، من الغافلين عنها ، غير المتحمسين لها .

إن الرسالات الكبيرة تحتاج إلى حراس أقوياء من رجالها وأنصارها يكونون هم المسؤولين الأوائل عن وضع قيمها وتعاليمها النظرية موضع

التنفيذ . وبغير هذا يكون التطبيق أمراً صورياً لا يغير الحياة من جذورها ، ولا ينفذ بالإصلاح إلى أعماقها .

٣ – إن تطبيق الشريعة ليس عمل الحكام وحدهم ، وإن كانوا هم أول من يطالب بها ، باعتبار ما فى أيديهم من سلطات تمكنهم من عمل الكثير من الأشياء التى لا يقدر عليها غيرهم ، وقد كان بعض السلف يقولون : لو كانت لنا دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان . فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

وهذا كان فى عصر لم يكن زمان التعليم والإعلام ، والتثقيف والتوجيه والترفيه بيد السلطان كما هو اليوم .

ومع هذا نقول : إن على الشعب مسؤولية تطبيق الشريعة فى كثير من الأمور التى لا تحتاج إلى سلطان الدولة وتدخل الحكام .

إن كثيراً من أحكام الحلال والحرام ، والأحكام التى تضبط علاقة الفرد بالفرد والفرد بالأسرة ، والفرد بالمجتمع ، قد أهملها المسلمون أو خالفوا فيها عن أمر الله ، وتعدوا حدود الله ، ولن يصلح حالهم إلا إذا وقفوا فيها عند حدود الله تعالى ، والتزموا بأمره ونهيه بوازع من أنفسهم ، وشعورهم برقابة ربهم عليهم .

ويجب على الدعاة والمفكرين والمربين أن يبذلوا جهودهم لتقوم الشعوب بواجبها فى تطبيق ما يخصها من شرع الله ، ولا يكون كل همها مطالبة الحكام بتطبيق الشريعة وكأنهم بمجرد أن يرفعوا أصواتهم بهذه المطالبة قد أدوا كل ما عليهم ! .

٤ – إن التدرج سنة من سنن الله فى خلقه ، وشرعه . فقد خلق الإنسان أطواراً ، علقة ، فمضغة ، فعظاماً .. الخ ، وخلق الدنيا فى ستة أيام ، الله أعلم بكل يوم منها كم هو ؟ .

كما أنه فرض الفرائض وحرم المحرمات ، وفق سنة التدرج مراعاة لضعف البشر ورحمة بهم .

والشريعة قد اكتملت بلا شك ، ولكن تطبيقها فى عصرنا يحتاج إلى تهيئة وإعداد لتحويل المجتمع إلى الالتزام الإسلامى الصحيح ، بعد عصر الاغتراب والتغريب . وقد تم بعض هذا فى بعض البلاد ، وبقى بعض ، وهو يحتاج إلى بذل الجهود ، لإزالة العوائق ، ومنع الهزات ، وإيجاد البدائل ،

وتربية المنفذين الذين يجمعون بين القوة والأمانة ، واجتماعهما فى الناس قليل ، طالما شكا منه الأقدمون حتى قال عمر : اللهم إنى أشكو إليك عجز الثقة وجلد الفاجر ! .

ولهذا لا مانع من التدرج فى التطبيق ، رعاية لحال الناس ، كما فعل عمر ابن عبد العزيز حين قال لابنه المتحمس الذى عاب عليه بطء التنفيذ : يا بنى إن الله ذم الخمر فى آيتين ، ثم حرمها فى الثالثة ، وإنى أخشى أن أحمل على الناس الحق جملة ، فيدعوه جملة ! يعنى أنه يريد أن يسقيهم الحق جرعة جرعة .

كل ما نؤكده هنا ألا يكون هذا مجرد تكأة لتأجيل العمل بالشريعة ، وتمويت الموضوع بمرور الزمن ، باسم التدرج والتهيئة .

ولهذا نطالب بوضع الخطة للإعداد والتغير ، تعليمياً وإعلامياً ، وثقافياً واجتماعياً . بادئين بما لا يحتاج إلى تدرج ولا تهيئة ، وإنما يحتاج إلى صدق التوجه ، وصحة العزيمة ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

* *

• الإسلام ليس مادة هلامية :

ولقد أوهم بعض الذين كتبوا مشككين أو معارضين للدعوة إلى تطبيق الشريعة أوهموا أن الشريعة المدعو إلى تطبيقها مادة (هلامية) رجراجة غير محددة ولا منضبطة ، يستطيع كل حاكم أو كل فريق أن يفسرها كما يشاء .

حتى وجدنا من يقول : أى إسلام تدعوننا إليه ، وتطالبوننا بتحكيمه ؟ فقد رأينا الإسلام الذى ادعى بعض الحكام تطبيقه هو اليوم يختلف من بلد إلى آخر . فهناك إسلام السودان ، وإسلام إيران ، وإسلام باكستان ، وإسلام ليبيا !! أو كما عبر أحدهم بصراحة : إسلام النميرى أم إسلام الخمينى أم إسلام ضياء الحق ، أم إسلام القذافى ؟ .

ونقول لهؤلاء : إن الإسلام هو الإسلام ، غير مضاف إلى أحد إلا إلى من شرعه أو من بلغه ، فهو إسلام القرآن والسنة ، ولا يرتبط باسم شخص إلا باسم محمد ﷺ الذى بعثه الله به بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

ومهما اختلفت التفسيرات أو اختلفت التطبيقات لشريعة الإسلام ، فستظل هناك دائرة غير ضيقة ولا هينة ، تمثل الوحدة الاعتقادية والفكرية

والشعورية والسلوكية للأمة . تلك هى دائرة (القطعيات) التى أجمعت عليها الأمة فكراً وعملاً ، ورسخت فى عقولها وقلوبها وحياتها على امتداد القرون الأربعة عشر ، التى قطعتها هذه الأمة .

هناك قطعيات فى العقيدة والفكر .. وقطعيات فى العبادة والشعائر ، وقطعيات فى الشريعة والنظم .. وقطعيات فى الأخلاق والآداب .. وكلها مما لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان كما يقولون .

وهذه القطعيات وحدها هى أساس التغيير ، ومحوره ، وهى التى تحدد الاتجاه والأهداف ، وترسم المنهج والطريق ، وتميز الملامح والقسمات .

وأما ما عدا القطعيات من أحكام وأنظمة ، فهو لم يترك لعبث الأهواء المتسلطة أوشطحات الأفكار الجامحة ، أو لاستبداد السلطات المتحكمة ، تفهمه كما تريد ، وتفسره كما يحلو لها ، دون أصل تستند إليه ، ولا برهان تعول عليه .

كلا ، بل هناك (أصول) و (قواعد) وضعها أئمة الإسلام للاستيثاق من ثبوت النص الشرعى أولاً ، ثم لفهم دلالته ثانياً ، ثم للاستنباط فيما لا نص فيه ثالثاً .

ومن ثم وجد علم أصول الفقه ، وقواعد الفقه ، وأصول الحديث ، وأصول التفسير ، ونحوها من المعينات اللازمة للفهم والاستنباط .

ولا بأس أن تتعدد المدارس فى الفهم والاستنباط ، على أن يقوم ذلك على أصول منهجية علمية مبنية على الدليل ، لا على الهوى أو التقليد .

وربما كان هذا الخلاف مصدر إثراء الفكر الإسلامى ، وللعمل الإسلامى إذا وضع فى إطاره الصحيح .

* *

• البعد الحضارى :

أما الشعبة الخامسة ، فتتجه إلى الحياة كلها لترقى بها وتنقلها من البداوة والتخلف إلى الحضارة والتقدم ، وهذا هو (البعد الحضارى) .

والبعد الحضارى فى الإسلام يعنى جملة أمور هى مقومات الحضارة :

أولاً : العلم : الذى هو أساس كل الحضارات ، وهو فى الإسلام يحتل

مكانة كبرى ، فطلبه فريضة ، والتفرغ له عبادة ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه قربة ، وهو مفتاح الإيمان ، ودليل العمل ، ونور الطريق ، وسبيل الجنة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) ، به يهتدى الضالون ، ويتفاضل المهتدون : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وإذا كانت بعض الأديان قد وقفت – أو وقف رجالها – موقف المعارضة أو التوجس من العلم . فالإسلام برىء من مثل هذه التهمة . فالعلم فيه دين ، والدين فيه علم ، وقد انطلق أشهر علمائه فى الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والجبر وغيره من الدين ، فكان خير دافع لهم إلى الإتقان ، وخير مانع لهم من الطغيان .

وحسبنا أن أول سورة نزلت فى قرآننا نوّهت بالقراءة وهى مفتاح العلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٣) .

وثانى سورة فى ترتيب نزول السور نوهت بـ (القلم) أداة تسجيل العلم ونقله من جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أمة . وهى التى يقول فيها القرآن : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٤) فأقسم الله فيها بالقلم ، وفى ذلك تشريف أى تشريف .

كما أشار القرآن إلى أن من أثر العلم : اختصار الزمن ، وطى المسافات ، وتقريب البعيد ، كما فى قصة سليمان مع عرش بلقيس ، حيث استطاع ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٥) . أن يحضر العرش فى لمح البصر ، وهو ما عجز عنه عفريت الجن ، مما دلنا على أن الإنسان بقوة العلم يستطيع أن يتفوق على قوة الجن ، برغم ما أوتوا من قدرات وطاقات .

ثانياً : عمارة الأرض : بكل ما تحمله كلمة (العمارة) من معان ويدخل فيها الزراعة والغرس والبناء والصناعات المختلفة ، التى اعتبر فقهاء الإسلام تعلمها وإتقانها فرض كفاية على المسلمين ، على معنى أنهم يسألون عنها مسؤولية تضامنية ، فإذا وجد فى بلد من يكفى لتغطية حاجاته ، وسد

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٩ .
(٣) سورة العلق : الآية ١ .
(٤) سورة القلم : الآية ١ .
(٥) سورة النمل : الآية ٤٠ .

ثغراته بحيث يكتفى المجتمع المسلم بأبنائه اكتفاء ذاتياً ، لا يجعله عالة على غيره ، فقد سلم المجتمع كله من الإثم والحرج ، وإلا أثم الجميع ، كل على قدر ما أوتى من قدرة وسلطة . كما نشاهد ذلك اليوم فى مجتمعاتنا التى تعلن أن دينها الإسلام ، وكل منها يمد يده إلى الغير يستورد منه السلاح الذى يدافع به عن كيانه ، أو يشترى منه الطعام الذى هو قوت يومه ، أو يطلب منه (التكنولوجيا) التى لا تستقيم حياة معاصرة بدونها .

فلو كف ذلك الغير يده – لسبب أو لآخر – فلم يمد ذلك المجتمع المسلم بالسلاح أو الغذاء ، أو الآلات ، لهلك بالهزيمة أو الجوع أو التخلف ! .

لست فى حاجة إلى أن أذكر الأدلة على عناية الإسلام بعمارة الأرض ، فما أحسب مسلماً لهِ أدنى قراءة فى المصادر الإسلامية يجهل هذا . وأكتفى هنا بما ذكره الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم (الذريعة إلى مكارم الشريعة) حيث اعتبر (العمارة) أحد المقاصد الأساسية من خلق الله للإنسان كالعبادة والخلافة . يقول فى ذلك :

« إن كل نوع أوجده الله تعالى فى هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه ، فإنه أوجد لفعل يختص به ، ولولاه لما وجد ، وله غرض لأجله خص بما خص به ، فالبعير إنما خص ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس ، والفرَس ليكون لنا جناحاً نطير به ، والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما ، والباب لنحرز به البيت . والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء :

١ – عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) ، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره .

٢ – وعبادته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) . وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه .

٣ – وخلافته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، وغيرها من الآيات (٤) .

---

(١) سورة هود : الآية ٦١ .
(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٩ .
(٤) انظر : الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ، تحقيق د . أبو اليزيد العجمى – نشر دار الصحوة بالقاهرة .

ومن هنا يكون كل عمل لتنمية المجتمع وزيادة إنتاجه عبادة وقربة إلى الله ، فمن زرع زرعاً أو غرس غرساً ، فله بكل ما يؤكل منه صدقه ما ظل الناس ينتفعون به .

وكل عمل يؤديه المسلم بإتقان ، يجعله أهلاً لمحبة الله تعالى ومن أحبه الله كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وأى مسلم لا يعرف هذا الحديث : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » (رواه البيهقى وهو حسن) .

بل إن الإتقان – أو الإحسان – للعمل ليعد فى نظر الإسلام فريضة مكتوبة على المسلم كما كتب عليه الصلاة والصيام « إن الله كتب الإحسان على كل شىء » (رواه مسلم) .

وإن أمة لديها مثل هذه التعاليم لا ترضى أن تعيش فى دائرة التخلف فترى غيرها يتقدم وهى فى ذيل القافلة ، وكان ينبغى أن تكون فى مأخذ الزمام ، وقد بوأها الله مكانة الشهادة على الأمم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ثالثاً : المال : باعتبار المال نعمة ، يجب المحافظة عليها ، والقيام بشكرها ، وقد سماه القرآن خيراً فى آيات كثيرة ، كقوله عن الإنسان : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

فينبغى للمسلم أن يسعى فى كسب المال من حله ، وإنفاقه فى محله ، وعدم البخل به عن حقه . كما ينبغى أن يعمل على تنميته بعد كسبه .

والقرآن يعتبر المال قواماً لحياة الناس ، ولهذا نهى عن تمكين السفهاء من المال . ولو كان مالهم حسبما تنص عقود الملكية .. لأنه فى النهاية مال المجتمع ، وثروة الأمة : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٣) .

وإذا كانوا ينقلون عن المسيح عليه السلام قوله : إن الغنى لا يدخل

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٢) سورة العاديات : الآية ٨ .
(٣) سورة النساء : الآية ٥ .

ملكوت السموات حتى يدخل الجمل فى سم الخياط ! فالمسلمون نقلوا عن نبيهم قوله : « نعم المال الصالح للمرء الصالح » . كما نقلوا من أحاديثه ما يشير إلى أن الغنى الشاكر أفضل درجة من الفقير الصابر ، لأنه يستطيع بالمال أن يتصدق ويعتق وينفق فى سبيل الله . ويجاهد بماله ، مالا يستطيعه الفقير ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذا نقلوا عن المسيح قوله لمن أراد أن يدخل فى دينه : « اذهب فبع مالك واتبعنى » فقد نقلنا نحن عن رسولنا أنه دعا لخادمه أنس بن مالك – فيما دعا له – أن يكثر الله ماله . وقال : « ما نفعى مال كمال أبى بكر » .

رابعاً : الصحة : فتكاليف الدين وأعباء الدنيا ، لا يقوم بها المرضى والضعفاء إنما يقوم بها الأصحاء الأقوياء . والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

ولأول مرة يسمع الناس من دين أن المحافظة على الجسم واجب ، وأن حرمانه من حقه فى الراحة أو الطعام والشراب غير جائز ، ولو كان ذلك فى سبيل المبالغة فى التعبد . وهذا ما جعل الرسول الكريم يقول لمن وجد لديهم النزعة إلى إرهاق البدن لتصفو الروح : « إن لبدنك عليك حقاً » . وهو يحرم أشد تحريم المسكرات والمخدرات . حفاظاً على صحة البدن والعقل معاً ، ويلعن كل من ساهم فى ذلك من قريب أو بعيد .

ونراه يعنى بالوقاية قبل العلاج ، فيحظر البول والتغوط فى الطريق والظل والماء ، ويعتبر ذلك من أسباب اللعنة على من فعله .

ونراه يقر سنة الله فى العدوى ، وإن كانت الأشياء لا تعدى بذاتها ، بل بمشيئة الله تعالى ، فيقول : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » بل يقرها فى الحيوانات فيقول : « لا يوردن ممرض على مصح » والممرض صاحب الإبل المراض بالجرب ونحوه ، والمصح صاحب الإبل الصحاح ، فلا يجوز أن يخلط الأول إبله بإبل الثانى ، فيعديها .

ونراه يقر بمبدأ العزل الصحى فى حالات الوباء ، كما فى حديث : « إذا دخل الطاعون فى بلد وأنتم فيه فلا تخرجوا منه ، وإذا كنتم خارجه فلا تدخلوا فيه » .

وهو بعد ذلك يأمر بالتداوى « فإن الذى خلق الداء خلق الدواء » أخذاً

بما أقام الله عليه الكون من أسباب تفضى إلى مسبباتها بقدر الله تعالى ، فالتداوى ليس معارضة للقدر ، بل هو دفع للقدر بالقدر .

وقد سئل النبى ﷺ : « أرأيت أدوية نتداوى بها ، وتقاه نتقيها .. هل ترد من قدر الله شيء ؟ » قال : « هى من قدر الله » .

فالمرض من قدر الله ، والدواء من قدر الله ، والمؤمن يدفع قدراً بقدر ، كما يفر من قدر إلى قدر ، كما قال عمر : « نفر من قدر الله إلى قدر الله ! » .

وقد فتح النبى ﷺ أبواب الأمل أمام الأطباء والمرضى ، حين قال : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه وجهله من جهله » .

وهذا يدل على أنه ليس هناك مرض يستعصى على الشفاء ، وفق سنة الله إلا ما استثناه الحديث وهو (الهرم) . والمطلوب إذن هو : المزيد من البحث ، ومقاومة اليأس .

خامساً : الاستمتاع بالطيبات والزينة : فليس الإسلام كالأديان والفلسفات التى بالغت فى التنفير من الدنيا ، والتزهيد فى طيبات الحياة وزينتها ، وجعلت الاستمتاع بها يبعد عن الله ، ويقرب من الشيطان ، وقست على الجسم من أجل ارتقاء الروح ، حتى اعتبر بعضها القذارة عبادة ، والنظافة رجساً من عمل إبليس اللعين ! .

أجل ، الإسلام ليس كبوذية الهند ، ولا مانوية فارس ، ولا رواقية الإغـريق ، ولا رهبانية النصارى ، ولا غيرهم .

إنما هو دين الحياة ، جاء يحل للناس الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، وينكر أشد الإنكار على الذين حرموا على الناس طيبات ما أحل الله ، ويقول فى ذلك كتاب الإسلام : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُواْ وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) .

ويعتبر القرآن طيبات الرزق من مظاهر ربوبية الله تعالى ، ودلائل قدرته ورحمته :﴿ اللّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

كما اعتبر القرآن ذلك من دلائل تكريم الله لبنى الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢) .

وما كان الله ليمن على الناس بخلق الطيبات وجعلها من رزقهم ثم يحرمها بعد ذلك عليهم ! .

ويدخل فى إطار هذه الطيبات :

(أ) **طيبات المأكل والمشرب** : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

(ب) طيبات الملبس والزينة : ﴿ يَا بَنِىَ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (٤) .

(جـ) طيبات المركـــب : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

(د) طيبات المسكن : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾(٦).

وفى الحديث (ثلاث من السعادة). وعد منها : « المسكن الصالح » ومن دعائه ﷺ : « اللهم وسع لى فى دارى » .

(هـ) طيبات الاستمتاع بالجنس الحلال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ (٧) .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُم لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة غافر : الآية ٦٤ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .
(٣) سورة المائدة : الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٦ .
(٥) سورةالنحل : الآية ٨ .
(٦) سورة النحل : الآية ٨٠ .
(٧) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .
(٨) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(و) **طيبات اللهو والترفيه** : فإن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، ولهذا تحتاج إلى الترويح بشيء من اللهو ، ليقويها على الجد ، وتقدر به على مواصلة المسيرة ، فإن القلب إذا أكره عمى .

ويتأكد مشـــروعية اللهو فى المناسبات السارة كالأعياد والأعراس ، حتى أن النبى ﷺ أذن للحبشة أن يلهوا بحرابهم فى مســـجده الشريف فى يوم عيد ، حتى تعلم اليهود أن فى ديننا فسحة وأنه بعث بحنيفية سمحة .

وحتى أنه عليه الصلاة والسلام أنكر أن تزف العروس بلا لهو ولا غناء يشيع البهجة والسرور ، ويوسع قاعدة الإعلان عن الحدث السعيد .

* * *